المرأة في الفلسفة 8

روسو والمرأة

أ. د. إمام عبدالفتاح إمام

التنوير

روسو والمرأة

الكتاب: روسو والمرأة
المؤلف: إمام عبد الفتاح إمام

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى / ٢٠١٠

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان
هاتف: ٤٧١٣٥٧ ١ ٠٠٩٦١ فاكس: ٤٧٥٩٠٥ ١ ٠٠٩٦١
Email:dar_altanweer@hotmail.com
Email:dar_altanweer@yahoo.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة مصطفى قانصو للتجارة الطباعة بيروت / لبنان

All rights reserved, No part of this publication may be reproduced, stored in a retrival system, or uansmitted in any means, electronic, mechanical, photo, copying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publisher.

١٥٥,٥
١٢
١٨٣٨٢

روسو والمرأة

تأليف

أ.د. إمام عبد الفتاح إمام

مقدمة

«إن عظماء المفكرين السياسيين الغربيين
كانوا رجالاً، يكتبون عن الرجال،
ومن أجل الرجال...!»

سوزان موللر

مقدمة

هذا هو الكتاب الثامن من سلسلة «الفيلسوف.... والمرأة» والتي قصدت منها أن أبرز كيف ظلم الفلاسفة المرأة ظلماً شديداً عندما خضعوا للفكر السائد في مجتمعاتهم والذي تجسد في العرف، والعادات والتقاليد...الخ مصداقاً لقول هيجل: «إن كلاً منا هو ابن عصره وربيب زمانه، وفي استطاعتنا أن نقول إن الفلسفة بدورها كان عصرها ملخصاً في الفكر» [1] لقد كانت علاقة الفيلسوف بالمرأة سيئة بالغة السوء حتى القرن التاسع عشر على الأقل، في حين أنها كانت وردية شاعرية: رقيقة وجميلة مع الشعراء والفنانين بصفة عامة!.

فقد خضع سقراط، وأفلاطون، وأرسطو – عمالقة الفكر اليوناني، للأفكار التي عبرَّتْ عنها عادات وتقاليد المجتمع اليوناني- رغم ما قيل خطأً من أن أفلاطون كان نصيراً للمرأة. يقول أستاذنا المرحوم الدكتور الأهواني: «لقد نظر أفلاطون في أمر المرأة، فأعلن حريتها لأول مرة في التاريخ على أساس فلسفي من الطبيعة البشرية، فهي تشارك في الإنسانية

---

(1) هيجل «أصول فلسفة الحق» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام – العدد الخامس من سلسلة «المكتبة الهيجلية» دار التنوير بيروت ص88.

كالرجل تماماً...» [1] مع أن أفلاطون كان يصنف النساء دائماً في أحاديثه مع العبيد، والأطفال، والأشرار، والمخبولين من الرجال أو مع الحيوانات والقطيع» [2] وقل مثل ذلك في «الحب الأفلاطوني»..الذي طبقَت شهرته الآداب، فأصبح عنواناً على ضرب خاص من الحب بين الرجل والمرأة...»[3] في حين أنه في الواقع ضرب خاص» من العلاقة بين رجل ورجل هي ما نسميه بالصداقة..!.

ولقد ناقشنا هذه الموضوعات (مكانة المرأة ووضعها وكيف أن إلغاء الأسرة أدى إلى إحالتها إلى رجل- وكذلك المبررات التي جعلتنا نرفض فكرة تحرير أفلاطون للمرأة. وكذلك الحب الأفلاطوني واعتباره حباً عذرياً..الخ في العدد الأول من هذه السلسلة).

ولا نستطيع أن نقول إن المرأة عند «روسو» تثير إشكالات من هذا القبيل، بل نستطيع أن نقول بصراحة ووضوح أن «روسو» بكتاباته وأفكاره وتصوراته يتربع على قمة جبل من المتناقضات والمفارقات بشأن المرأة حتى لقد انخدع البعض في كلماته فظنوا أن «الفيلسوف الثائر» فيلسوف العدالة والمساواة- كان ثائراً أيضاً من أجل المرأة التي عاش في كنفها طوال حياته- مع أن ذلك لم يحدث قط: فهو عندما

---

(1) د. أحمد فؤاد الأهواني: «أفلاطون» العدد الخامس من سلسلة نوابغ الفكر الغربي- دار المعارف بمصر، عام 1965 ص138.

(2) ناقشنا هذا الموضوع في شيء من التفصيل في كتابنا «أفلاطون... والمرأة» وهو العدد الأول من هذه السلسلة ص84 من طبعة دار التنوير عام 2009.

(3) د. أحمد فؤاد الأهواني: المرجع السابق ص53.

يتحدث عن «**الناس**» مثلاً ويشجب التفاوت بين الناس» أو عندما يؤسس «العقد الاجتماعي» بين **الناس**، أو يدعو إلى العدالة بين **البشر**، أو المساواة والحرية بينهم..الخ فإن علينا أن نلاحظ بدقة إن كلمة **الناس** أو **البشر** التي يستخدمها بكثرة أو حتى كلمة **الإنسان** (وهي كلمة مضللة..)[1] التي كثيراً ما تخدعنا لا يقصد بها هنا سوى «**الرجل**» المساواة بين **الرجال**، والحرية **للرجال**، والعدالة من أجل **الرجال** أعني بين رجل ورجل آخر.. ألخ والعبارة الأولى التي وردت في بداية كتابه «العقد الاجتماعي» وهزت الدنيا:-

«ولد الإنسان حراً وهو الآن مكبل بالأغلال في كل مكان...[2] لم تكن تعني البشر جميعاً رجالاً ونساءً بل تقتصر على الرجال فحسب. فقد ولد الرجل حراً وهو الآن مغلول في الأصفاد في كل مكان..» أما المرأة فهي جنس آخر هي مخلوق ثانٍ كما ستقول سيمون دي بوفوار في القرن العشرين. إن فيلسوف الحرية والمساواة لم يطبق القيم البشرية الأساسية بطريقة واحدة على الجنسين. ومن هنا فإننا نجد مارجريت كانوفان Margraet Canovan – تحدثنا عن هذه الصورة المتناقضة في فكر روسو- فتقول:-

---

(1) لاحظ أن كلمة «الإنسان» في اللغة الإنجليزية The Man – وكذلك كلمة الإنسان» في اللغة الفرنسية L'Homme تعني الإنسان كما تعني الرجل أيضاً وكثيراً ما تستخدم عنده، وعند غيره، بهذا المعنى الملتبس الدلالة فيكون في ذهن الكاتب «الرجل» وفي ذهن القارئ «الإنسان» أو الناس بصفة عامة.

(2) J.J. Rousseau: Social Contract Eng. Trans. By M.Cranston, Penguin Books P.49.

«إذا تصورنا إقامة معرض لأدوات تعذيب للمرأة وقتلها، ففي ظني أن «روسو» سوف يحتل مكان الصدارة في مثل هذا المعرض المرعب. ذلك لأنه إذا كان معظم المفكرين السياسيين قد سلَّموا بخضوع النساء، فإن بطرياركية روسو، بصفة خاصة، كانت صارخة شديدة الوضوح، فضلاً عن أنها تتعارض تعارضاً شديداً مع آرائه الثورية عن العدالة، والحرية، والمساواة الخاصة بالوضع الصحيح للجنس البشري (إذا كان من الرجال) – فهو يشجب تبعية شخص لشخص آخر (في حين أنه يعتبر هذه التبعية جزءاً لا يتجزأ من طبيعة المرأة وجوهرها- إذ لا بد أن تكون المرأة تابعة للرجل على نحو ما سنوضح ذلك في الفصل الثالث). ويطالب بالاستقلال السياسي والأخلاقي بين البشر (لكنه يعني أن يكون هذا الاستقلال للرجل فحسب دون المرأة لأنه لا يسمح لها أصلاً بالاشتراك في العمل السياسي) لكنه يُعطي لهذه المفاهيم الثورية، والأفكار الراديكالية، والتصورات السياسية والاجتماعية الجديدة- إجازة إذا ما تحدث عن النساء. وهكذا كان تمجيده للمجالات العامة للمواطنة مؤلماً غاية الألم عندما يستبعد منها النساء.» [1].

ومن هنا فإن علينا أن لا نخدع بكلمات «الفيلسوف الثائر» عن العدالة والحرية والإخاء والمساواة وغيرها من المفاهيم الجميلة التي يستخدمها في مجال الحديث عن أقرانه من الرجال، وعلينا أن نتذكر

(1) Margaret Canovan: «Rousseau's Two Concepts of Citizenship» in Women in Western Political Philosophy» edited by Ellen Kennedy and Susan Mendus, Wheat sheaf Books, in Great Britain, 1987, P.78.

باستمرار أنه يقول: «إذا اشتكت المرأة من اللامساواة مع الرجل فهي مخطئة.!»[1]. هكذا بصراحة ووضوح فالحديث عن المساواة لا يعني أنه يمتد ليشمل "المرأة والرجل" وإنما هو محصور في نطاق الرجال فحسب..!.

ومع ذلك كله فإن «سوزان موللر» تنبهنا إلى أن آراء روسو وأفكاره عن النساء، ووضعهن في النظام السياسي والاجتماعي هامة لثلاثة أسباب هي على النحو التالي:

السبب الأول: إن الصورة التي يقدمها لنا «روسو» عن وضع المرأة في المجتمع تمثل نظرة التراث الغربي كله إلى النساء وهو يؤمن بأفكاره على غير العادة- عن وعي كامل ويبررها بصلابة وعناد، معلناً انفصال واضطهاد النساء طوال تاريخ التراث الغربي؛ وهو يذهب إلى أن المرأة تتميز بوضع خاص ووظائف معينة لبنات جنسها، وهو وإنْ كان يدافع عن الطبيعة، فإن استدلاله لما هو طبيعي بالنسبة للنساء يختلف عما هو طبيعي بالنسبة للرجال محافظاً على التراث الطويل الذي يرتد إلى أرسطو!.

والسبب الثاني: هو الإقرار بالأبوة، وهو مشكلة ذات أهمية خاصة في عدد من الدراسات حول وضع المرأة، وكانت تثير الوساوس عند «روسو» فهو يشير مراراً في مؤلفاته إلى حاجة الرجل أن يكون على يقين مطلق من إخلاص زوجته ليتأكد أن الأولاد هم حقاً أطفال من صلبه. ومن هنا نراه يضع معايير أخلاقية مختلفة للجنسين، وعلى هذا

---

(1) إميل أو التربية: ترجمة عادل زعتير، دار المعارف بمصر عام 1954ص 68.

الأساس يبين «روسو» ضرورة الحكم والسيطرة المطلقة للأزواج على زوجاتهم، وانحصار النساء في المنزل عقب الزواج والرغبة في فصل الجنسين وانعزال المرأة داخل المنزل والتربية الأخلاقية للنساء التي هي الضد التام لما اقترحه من تربية أخلاقية للرجال مع ملاحظة أن الفضيلة الوحيدة للمرأة هي العفة.

أما السبب الثالث والأخير لأهمية دراسة آراء «روسو» عن المرأة لا سيما التربية الصحيحة لها- فهو أن نتائج اقتراحه كانت مأساوية داخل النظرية الاجتماعية لأن المرأة إذا ما خضعت للقيود التي يضعها فسوف ينتهي الأمر إلى تدمير الأسرة على نحو ما حدث في نموذج اثنين من النساء المثاليات الذي ابتكره روسو هما «جولي Julie» في «هلويز الجديدة»، و»صوفي..Sophie» في كتابه «إميل أو التربية» ونتيجتهما التي لم تتم لنرى أن نظريته في تربية ومعالجة النساء هي في عملية التطبيق تؤدي إلى نتائج مأساوية.. [1].

ومن هنا فإننا نجد أن دراسة العلاقة بين «روسو.. والمرأة» بالغة الأهمية لأنها تكشف لنا جانباً أساسياً في فكر هذا الفيلسوف الذي جعل شعاره «لا وطنية بلا حرية؛ ولا حرية بلا فضيلة، ولا فضيلة بلا مواطنين، إن تكوين المواطنين يجعلك لا تحتاج إلى شيء بعد ذلك، وبدونهم لن يكون لديك سوى عبيد على درجة عالية من الوضاعة» [2]

---

(1) راجع في ذلك كله كتاب سوزان موللر أوكين: «النساء في الفكر السياسي الغربي» لاسيما الفصل الخامس وانظر ترجمتنا العربية التي نشرتها دار التنوير في بيروت في هذه السلسلة لهذا الكتاب.

(2) Quoted: Jean Bethke Elshain (Public Man and Private Woman) P.147.

لكنه يتجاهل هذا الشعار تماماً عندما يعالج موضوع المرأة فلا هي وطنية، ولا هي مواطنة، ولا أهمية لأية فضائل أخلاقية سوى المحافظة على شرفها وعفتها لكي يتأكد الزوج أنها أنجبت أطفالاً من صلبه يرثون ما يملك! ولهذا درسته بعض النساء على أنه «مفكر سيء» يكن كراهية واضحة للمرأة، وأنه صاحب مساحات «شوفونية» لا ينكرها أحد.

وكما بالغ بعض الباحثين في الثناء على «روسو» باعتباره الفيلسوف الثائر ضد النظم الرجعية، والعادات المتخلفة، ووصفوه بأنه محرر الإنسان من الأغلال والأصفاد الذي رفض نظام العبيد وكره معاملتهم معاملة غير إنسانية حتى قبل ظهور كانط نفسه ..الخ [1] فإن هناك من النساء الباحثات مَنْ ينكر أو يتشكك على الأقل في ذلك كله. ومن هنا فقد شَنت عليه إيفا فجيز Eva Figes» في كتابها «اتجاهات أبوية بطرياركية» – هجوماً عنيفاً في فصل كتبته بعنوان «روسو: الثورة، والرومانسية، والتقهقر..» ووصفته بأنه شخص" أحقر من أن يؤخذ بعين الاعتبار وإنما هو يؤخذ على سبيل السخرية والازدراء" فضلاً عن أن كتابه «العقد الاجتماعي» كتاب «غير منطقي»، وتشككت في أن يكون قد أحدث مثل «هذا الأثر الهائل» الذي رواه المؤرخون.[2] وربما كرهته

(1) في ظني أنه من المبالغة أن نقول «كانت الآراء التي أطلقها روسو ذروة الدعوة التحررية التي بدأها أسلافه من المفكرين من أمثال لوك ومونتسكيو وقد جاء مؤلفه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social عام 1762 ليرسي دعائم الحقوق السياسية للفرد بصورته الثابتة..» تاريخ الفكر السياسي تأليف الدكتور إبراهيم دسوقي أباظة والدكتور عبد العزيز الغنام الناشر دار النجاح بيروت عام 1973 ص242.

(2) ويمكن أن تقارن أيضاً ما تقوله «اليزابيث رابابورت Elizabet Rapaport =

بعض الباحثات بسبب حياته التي اقتربت من الإنحلال، والتي وصفناها في الفصل الأول بأنها «حياة متناقضة بين أحضان الأنثى أو لمسلكه اللاأخلاقي مع أطفاله الذي قذف بهم في دار اللقطاء دون أدنى رحمة أو شفقة أو عاطفة أو تأنيب للضمير، أو مع الفتاة الريفية المسكينة التي عاملها على أنها خادمة ثم تزوجها وهو يحتضر! أو لحياته في بيوت الأغنياء في كنفهم وتحت رعايتهم وحمايتهم وهم الذين حرر الفقراء من نيرهم، وحرر المساكين من أغلالهم وأصفادهم... إلى آخر ما في حياة روسو من مفارقات ومتناقضات لا تخفى حتى على العين العابرة.

وسوف نعرض بالتفصيل لهذه الحياة المتناقضة في الفصل الأول كما قلنا ثم نتحدث في الفصل الثاني عن تأليهه للطبيعة شأنه شأن بقية الرومانسيين وإن كان قد اختلف عنهم في أنه صبغ هذا التأليه لا بصبغة عاطفية ومشاعر إنسانية نابعة من القلب كما يفعلون عادة بل بصبغة فلسفية عقلية قادمة من أرسطو! ليبرر بها أفكاره السيئة عن النساء.

وسوف نتناول في الفصل الثالث خصائص الأنثى التي منحتها لها الطبيعة وهي خصائص تختلف جذرياً عن خصائص الرجل- لأنها تتجه تماماً إلى وضعها تحت نير العبودية الذي أصبح خالياً بعد تحرير الرجل.

=

في الفصل الذي كتبته بعنوان: «حول مستقبل الحب: روسو: وأنصار المرأة من الليبراليين» في كتاب «النساء والفلسفة نحو نظرية عن التحرر» الذي قامت على نشره كارول جولد وماركس وارتفسكي.

«On The Future of Love: Rousseau and The Radical Feminists» «in women and Philosophy: Toward a Theory of Liberation» ed by Carol Gaold and Marx warto Fsky P.128-144.

أما الفصل الرابع فقد خصصناه «لتربية المرأة» على نحو ما عرضها في كتابه "أميل أو التربية" ومن أعجب العجب أنه كتب هذا الكتاب استجابة لرغبة امرأة هي ابنة «مدام دوبن..» [1] على شكل مذكرة قصيرة لكنها امتدت حتى زادت صفحاتها عن ألف صفحة! عرض فيها لتشكيل المرأة البسيطة الساذجة التي لا تصلح إلا لأن تكون جارية مطيعة «للسيد أميل» [2].

ثم ختمنا الكتاب كما بدأناه بمفارقات وتناقضات «روسو»- وما أكثرها..!

صحيح أن «روسو» لم يكن وحده من بين المنظرين السياسيين الكلاسيكيين الذين عالجوا وضع المرأة في المجتمع وكذلك مشكلاتها التطورية والجنسية واتخذوا منها موقفاً رجعياً شديد الرجعية، لكن «روسو» كان فريداً بينهم إذ اتخذت هذه المشكلات مركزاً رئيسياً بل محورياً في مؤلفاته.

---

(1) كما كتب «هلويز الجديدة» بسبب غرام روسو بالنساء، ثم امتدت صفحاتها إلى الألف دفاعاً عن روسو وتحبيذاً له وتمجيداً لحياته- د. محمد حسين هيكل «جان جاك روسو: حياته وكتبه» مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة الطبعة الثانية عام 1965 ص222.

(2) ينبغي علينا أن لا ننسى أنه كان مغروراً شديد الغرور، حساساً شديد الحساسية حاد الطبع، ثائراً على العادات القديمة...الخ "المدخل في علم السياسة" تأليف الدكتور بطرس بطرس غالي، ودكتور محمود خيرى عيسى، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة الطبعة التاسعة عام 1990 ص118.

وسوف نرى فيما بعد إن عمالقة الفكر الحديث مثل كانط وهيجل لم يتخذوا موقفاً تحررياً من المرأة ولم يدافع أي منهم عن حقوقها، ولم يكن منصفاً لها على الإطلاق إلا أن مشكلاتها لم تشغلهما بالقدر الذي شغلت به فكر «روسو» ومؤلفاته، وأحداث حياته..! وهو موضوع سوف نعرض له بالتفصيل في أعداد قادمة من هذه السلسلة [1].

وإني لآمل أن أكون بهذه السلسلة بصفة عامة قد أسهمت مساهمة متواضعة في تحرير ما أسمته «سيمون دي بوفوار» بالجنس الآخر، وما نسميه نحن «بالرئة المعطلة» حتى يتنفس المجتمع بسهولة ويسر بحيث تكون حيث أراد لها الله أن تكون نصف الجنس البشري شريكة ورفيقة وصديقة للرجل لا أمة ولا خادمة للسيد المبجل الذي لا يستطيع في الواقع أن يحيا بدونها..!.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سواء السبيل

الهرم في 17 مارس2009

إمام عبد الفتاح إمام

---

(1) سوف نصدر عدداً خاصاً بعنوان «كانط... والمرأة» وعدداً آخر عن «هيجل... والمرأة» في الأعداد القادمة من هذه السلسلة، لكن بداية الدعوة الفلسفية إلى تحرير المرأة والاعتراف بأنها إنسانة وشريكة ورفيقة للرجل لن تبدأ إلا مع «جون ستيورات مل» الذي سنخصه بكتاب ثالث!.

الفصل الأول

«حياة متناقضة بين أحضان الأنثى..»

«عندما وصلت إلى باريس قال لي الأب
كاستل: اعلم أن المرء لا يستطيع أن يقوم بشيء
ذي بال في باريس إلا بمساعدة النساء فهن
أشبه بمحيط الدائرة.. والمثقفون بخطوط
التماس، لكنهما لا يتماسان أبداً..!»

روسو

الفصل الأول

حياة متناقضة بين أحضان الأنثى..

أولاً: سنوات الطفولة:

على الرغم من أن «جان جاك رسو» فرنسي الأصل فهو سويسري المولد، فقد هاجرت أسرته البروتستاتينة هرباً من اضطهاد الكاثوليك- ومن هنا ولد في «جنيف» في 28 يوليو عام 1712 من أبوين متوسطي الحال: إسحاق روسو صانع الساعات، «وسوزان برنار» ابنة أحد المعلمين. ماتت أمه بعد ولادته فحزن الأب حزناً شديداً فقد كان يحبها منذ أن كان صبياً صغيراً [1]. ومع ذلك فقد احتضنه الأب وظل معه السنين الأولى من حياته، ولما بلغ السادسة من عمره علَّمه القراءة، وجعلا يقضيان الليل في قراءة روايات تركتها أمه، ألهبت خيال الطفل الصغير، وشدته إلى حب الكتب.

---

(1) يروي روسو في اعترفاته «أن حبهما بدأ منذ طفولتهما المبكرة، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء في إحدى طرق جينيف.. فلما صارا في العاشرة لم يعودا يفترقان» الترجمة الإنجليزية ص17- والعربية الجزء الأول ص23.

غير أن الأب تشاجر مع شخص آخر، وخشي على نفسه من أن يدخل السجن، فآثر الهرب، وعهد بالصبي إلى خاله الذي أرسله مع ابنه إلى معلم يدعى «لاميرسييه» وكان لهذا المعلم أخت في الأربعين من عمرها كانت تقوم على الطفلين قيام الأم، وتعنى بتربيتهما، فقضى روسو أسعد أيام حياته حتى أنه تعلق بمربيته تعلقاً شديداً انقلب إلى هيام دفعه إلى أن يجعل منها موضع حبه ويتودد إليها تودد العاشق إلى معشوقته. لكن المرأة لم تلتفت إلى شيء من ذلك فهي في الأربعين وهو صبي في الحادية عشرة من عمره! وعندما استشعرت الآنسة لاميرسييه Mlle Lamercier ميله لم تعد تسمح له، ولا لابن خاله بالنوم في غرفتها. والغريب أنها كانت عندما ما تعاقبه يشعر بلذة «تجعلني أكثر رغبة في أن أحظى به مرة أخرى من نفس اليد..!» وهو يرد ذلك إلى غريزة جنسية ذات نضوج مبكر كانت تخالط هذا الشعور..!.

قضى روسو عند الآنسة لاميرسييه خمس سنوات ثم تركها إثر حادثة تافهة، وعاد إلى خاله الذي بعث به إلى كاتب البلدة "لأتعلم على يديه مهنة نافعة" لكنه كره المهنة واعتبرها وضيعة! فأرسله خاله إلى أحد النقاشين على المعادن، وكان هذه المرة يحب المهنة لكن صاحبها كان فظاً غليظ القلب يرهبه بالعقاب، فترك العمل وهو في حالة يرثى لها حتى انحدر سلوكه «فأخذتُ أنافق وأكذب وأخيراً.. أسرق! وهو أمر لم يخطر ببالي مطلقاً من قبل..».

ثانياً: حياة التشرد:

بدأ روسو في حياة التشرد وكان ذلك الوقت في السادسة عشرة من عمره، فترك جينيف في سياحة طويلة، التقى فيها بقس أكرم وفادته، وحاول على مائدة الطعام العامرة أن يجعله يغير عقيدته من البروتستانتية

إلى الكاثوليكية، ولم تكن الفكرة تخطر له على بال، لكنه سكت إكراماً للرجل. وأرسله القس إلى امرأة في الثامنة عشر بارعة الجمال هي «مدام دي فارنس. Mme de Warens التي دلته على دين جديد هو الكاثوليكية ليترك دين آبائه (البروتستانتية) وقضى عندها بضعة أيام، سافر بعدها إلى «تورين Turin» في صحبة ذلك القس الذي كان قد بعث به إليها، وهناك لم يكن يملك شيئاً فدخل الدير ليتعلم الدين الجديد، وقضى فيه بعض الوقت يجادل أساتذته الذين حاولوا إدخال الكاثوليكية إلى قلبه وروحه، كما كانوا يفعلون دائماً مع الشبان في مثل سنه.

وحاول روسو أن يترك الدين، لكنه لم يفلت إلا بعد شهر عندما اعتبر كاثوليكياً، فأفرج عنه ومنُح عشرين فرنكا!، فخرج إلى المدينة هائما يخشى نفاذ ما معه من مال، فلجأ إلى بيت حقير «تملكه زوجة جندي تأوي الخدم المتعطلين، قبلتني فيه صاحبته مع آخرين على أن أدفع في الليلة مبلغاً زهيداً وكنا ننام جميعاً في غرفة واحدة: الأم والأطفال والنزلاء، وقد ظللنا على هذه الحال طيلة إقامتي عندها..» وعندما أوشك ماله على النفاذ راح يجوب الشوارع بحثاً عن عمل، لكنه لم يوفق في عمل دائم.

وأخيراً ألحقته السيدة صاحبة المنزل بخدمة امرأة أرستقراطية طاعنة في السن ظل يعمل عندها حتى ماتت، فعاد إلى المنزل القديم مرة أخرى، ليقضي فيه عدة أسابيع، ثم يغادر المدينة ليعود مرة أخرى إلى «مدام دي فارنس» السيدة التي أدخلته إلى عالم الكثلكة وربطت بينهما محبة بلغت حد الهيام، وأعَّدت له في بيتها غرفة مطلَّة على الحديقة، ولم يكن معهما سوى خادم وخادمة وتزايد الحب بينهما حتى صار الشغل الشاغل لروسو، وإن كانت قد اعتادت أن تدعوه «صغيري» ويدعوها «أمي»- رغم علاقتها الجنسية مع أشخاص آخرين. وظل حبه

لها عُذريا يسبح في دنيا الخيال. ويكفيه أنه عاد إلى الاستقرار والهدوء بعد أن أمضى زمناً طويلاً مشرداً، فقد واتته الفرصة الآن ليملأ بالقراءة كل أوقات فراغه مستعيناً بصاحبته التي قرأت كثيراً وكانت ذات عقل وحسن اختيار[1] ولما شعرتْ أنه على وشك أن تغويه النساء أسلمت له نفسها، ومن ثم فقد نسي الحب الطاهر يقول «ورأيتني لأول مرة في أحضان امرأة، امرأة كنت أعبدها. أكنُت سعيداً؟ كلا! لقد تذوقت اللذة.. ولكني شعرت أنني ارتكبت جريمة الزنا مع المحارم..» فبللت صدرها بدموعي مرتين أو ثلاثاً، وأنا أضمها بين ذراعي في وجد، أما هي فلم تكن حزينة، ولا مرحة...»[2] وقضى زمناً يضاجعها مع مدير أعمالها «كلود أنيه» فلما مات الأخير أصبح روسو سيد البيت، والمكلف بتدبير أمورها. ولم يتركها إلا ليذهب إلى باريس حيث تنتظره الحياة التي سوف تخلد اسمه.

ثالثاً: الطريق إلى باريس:

وصل إلى باريس في خريف عام 1741، وكان قد ابتكر طريقة جديدة، لكتابة «النوتة الموسيقية» ولندعه يروي القصة: «وصلتُ إلى باريس في خريف عام 1741، ولا أملك سوى القليل من المال،

---

(1) د. محمد حسين هيكل «جان جاك روسو: حياته وكتبه «مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية عام1965، ص44.

(2) J.J. Rousseau: The Confessions, Eng. Trans. Lay J.M. Cohen, Penguin Books,1987, P. 190. وقارن: محمد بدر الدين خليل «اعترافات جان جاك روسو «الجزء الأول، دار طلاس بدمشق عام 1985 ص444.

ومسرحية كوميدية كتبتها بعنوان «نرسيس Narcissus»[1]، وتخطيط بشأن الموسيقى. وكنُت في أشد الحاجة، للاستفادة من وقتي الضيق، فأسرعُت إلى عرض خطابات التوصية التي أحملها..» [2] وعرض اقتراحه على أكاديمية العلوم، لكن اللجنة المختصة رفضته مما سبب لفيلسوفنا ألماً شديداً لما أضاع من وقت وجهد، ولانهيار آماله وأحلامه. ومرت الأيام على هذا النحو يقضيها بين أصحابه وبين لعب الشطرنج على المقهى، وهو يراقب النقود القليلة التي يملكها وهي تنفذ. وفيما هو يوماً كذلك وقد أفلس أو كاد التقى بالقس «الأب كاستل Farher Castel»الذي قَّدم له نصيحة غالية أنقذته مما هو فيه، إذ قال: «إذا كان الموسيقيون والعلماء يرفضون أن يعزفوا ألحانك، فعدّل من أوتارك، وجرّب حظك مع النساء فربما تكون من هذه الزاوية أكثر توفيقاً! لقد تحدثت عنك إلى السيدة «بوزنفال Pauzenval»»، فاذهب

---

(1) نرسيس أو نرجس اسم فتى بهي الطلعة في الأساطير اليونانية، أغضب الآلهة (عندما رفض الحورية الجملية التي اختارتها له) فحكمت عليه أن يظل ينظر إلى صورته المنعكسة على صفحة ماء البحيرة حتى يذبل جسده ويموت، وفي النهاية أحالته إلى زهرة جميلة تطل رأسها إلى الماء وهي التي تعرف باسم زهرة النرجس. ومنها جاء مصطلح «النرجسية» في علم النفس Narcissism الذي يدل على الحالة المرضية التي ينصرف فيها المرء إلى الاهتمام بنفسه أو عشق ذاته راجع بالتفصيل كتابنا: «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الثالث ص14-15 مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996.

(2) J.J. Rousseau: The Confessions, P.260. والترجمة العربية السابقة الجزء الثاني ص640.

لزيارتها، واذكر أنك قادم من عندي! إنها امرأة طيبة يسرها أن تجد شخصاً من موطن زوجها، ولسوف تلتقي في دارها بابنتها السيدة «دبرجلي de Broglie» وهي امرأة ذكية، والسيدة دوبن Dupin وهي الأخرى ممن حدثتهن عنك، فأحمل لها مؤلفك، لأنها تشتاق لرؤيتك، وسوف تحسن استقبالك. واعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بشيء ذي بال في باريس إلا بمساعدة النساء. فهن أشبه بمحيط الدائرة، والمثقفون بخطوط التماس التي تقترب من هذا المحيط، لكنهما لا يتماسان أبداً»[1].

وعمل بنصيحة الأب «كاستل» وذهب لزيارة السيدة «بوزنفال» وابنتها، فأحسنا استقباله، وطلبا منه أن يتردد عليهما، ولقد كانت علاقته بهما مما جعله يتوقع قرب الفرج، والخروج مما كان فيه من ضنك وبؤس[2].

ثم زار مدام دوبن Dupin وقدّم لها رسالته التي دافع فيها عن تخطيطه الجديد لكتابة النوتة الموسيقية، فقبلت هديته، وأحسنت استقباله، وتحدثت معه في شؤون الموسيقى حديث العالم بخفاياها وحجزته عندها للعشاء. وراح يتردد عليها وكعادته مع النساء هام بها حباً منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها فلنستمع إلى اعترافاته: «كانت عندما رأيتُها لأول مرة، لا تزال من أجمل نساء باريس. وقد استقبلتني في غرفة زينتها، وكانت ذراعاها عاريتين، وشعرها غير مرتب، وثوبها مهدلاً، وكان مثل هذا الاستقبال الأول جديداً عليَّ، فلم يتحمله رأسي البائس،

(1) J.J. Rousseau: Ibid, P.271-272. والترجمة العربية لمحمد بدر الدين خليل، الجزء الثاني ص657.

(2) د. محمد حسين هيكل «جان جاك روسو» ص65.

واضطربتُ، وارتبكتُ.. وباختصار لقد همتُ حباً بمدام دوبن.. وأصبحت أزورها في كافة الأيام تقريباً، وأتناول الغذاء هناك مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، وكنت أتحرق شوقاً لمصارحتها بحبي لكنني لم أجرؤ.. فكتبتُ لها رسالة احتفظتْ بها يومين ثم ردَّتها في اليوم الثالث مع بضع كلمات تأنيب، قالتها بلهجة باردة تجمد لها دمي!»[1].

ولم ينقذه من حماقته سوى توسط السيدة «بوزنفال» لتعينه سكرتيراً لقنصل فرنسا في البندقية، التي وصلها في ربيع 1743، وقدَّم نفسه للسفير الكونت دمونتاجو. ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً، فقام هو بأعمال القنصلية، ثم تشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التي تُدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا وكانت أحوال روسو المالية قد تحسنت بفضل نصيبه من هذه الرسوم. وانتهى أمر الخلاف إلى فصل روسو من الخدمة وبرر السفير ذلك بقوله: «يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين في السيد روسو. ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه، ومن جنونه، هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذي وجدناه عليه. لذلك طردته كما يطرد خادم سيء»[2].

وهكذا عاد «روسو» إلى باريس مرة أخرى في 11 أكتوبر عام 1744، بعد ما يقرب من عام ونصف قضاها في إيطاليا، ورجع إلى المنزل الذي كان يسكن فيه من قبل يستكمل رواية كان قد بدأها قبل

---

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, P.260. والترجمة العربية السابقة الجزء الثاني ص661-663.

(2) ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد 39 ترجمة فؤاد اندراوس، ومراجعة على أدهم ص33-34.

سفره بعنوان «الشيطانات الرقيقات».

رابعاً: تريز لافاسير:

في هذا المنزل، وعلى مائدة الطعام، تعرف على فتاة ريفية بسيطة هي «تريز لافاسير Therese Le Vasseur» كانت شديدة الخجل محتشمة، وعندما بدأ النزلاء في معاكستها، تولى روسو الدفاع عنها» وغدوت جهاراً نصيراً للفتاة، ورأيت أنها قد تأثرت بعطفي، وأن نظرتها أخذت تطفح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به.. وتطورت علاقتي مع الصغيرة التي لم يكن لها سواي نصير في الدار. ولقد أنبأتها منذ البداية أنني لن أهجرها قط ولن أتزوجها أطلاقاً! وكان الحب، والاحترام والإخلاص الصادق هُم رسلي عندها، وذلك لأن قلبها كان نقياً أميناً ورقيقاً، مما جعلني سعيداً دونما حاجة إلى أن أكون جريئاً» [1].

وقبل أن تهبه نفسها اعترفت له أنها ليست عذراء لكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة وهي تغادر مرحلة الطفولة، وكانت ثمرة جهلها، ودهاء الشخص الذي أغواها. وصاح بها في اغتباط: «البكارة!. جميل أن تكون فتاة العشرين مرغوبة في هذا المكان الجميل: آه! يا تريزتي العزيزة، أنا سعيد سعادة لا توصف أن أحظى بك، طيبة وسليمة.!» [2].

كانت الفتاة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال، ولا تستطيع الكلام في الفلسفة أو السياسة كنساء الصالونات، لكنها تعرف كيف تطهو وتدبر

.J.J. Rousseau: The Confessions, P.310 (1)

..J. Rousseau: The Confessions, P.311 (2)

شؤون البيت، وتحتمل في صبر نزواته وعاداته الغريبة. وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها «مدبرة البيت» أما هي فتقول عنه «رجلي»، ونادراً ما اصطحبها في زيارته لأصدقائه، لأنها ظلت على الدوام مراهقة ذهنياً كما ظل هو على الدوام مراهقاً خلقياً[1].

هذه هي المرأة التي شاركت «روسو» حياته وظلت معه حتى يوم وفاته، وإنْ بقيت على حالها من البساطة والجهل: «حاولتُ أول الأمر أن أصلح عقلها، ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح. إن عقلها بقي على ما فطرته الطبيعة، فهو لا يقبل التثقيف، ولا يخجلني أن اعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها.. ولم تستطيع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب، أو تميز بين عدد وآخر، رغم ما بذلت من عناء في محاولة تعليمها. وهي لا تعرف كيف تعد النقود، ولا تحسب ثمن أي شيء، فإذا تكلمت كانت الكلمة التي تخطر على بالها هي في أحيان كثيرة عكس الكلمة التي تقصدها..»!

فلما حملت ارتبك «روسو» ارتباكاً شديداً، فماذا هو صانع بالطفل. وأشار عليه بعض أصدقائه» أنه من المألوف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ اللقطاء. فلما ولد الطفل الأول عام 1747 بعث به إلى الملجأ رغم احتجاجات الفتاة، وخلال الأعوام التالية ولد له أربعة أطفال آخرين تصرف فيهم على هذا النحو. ولقد ذهب بعض المتشككين إلى أن «روسو» لم يرزق أطفالاً، وأنه اخترع هذه القصة ليخفي عجزه الجنسي، وأن كل ما رواه محض أكاذيب، فقد كان مريضاً باحتباس في المثانة، وقد أدى المرض إلى عقمه. وما الجأه إلى الكذب

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد 39. ص36.

هو ما كان عليه من شدة الميل للنساء، فكان يخشى إنْ هن عرفن عقمه صدفن عنه، ولم تقبل منهن واحدة عليه. واستدلوا على ذلك من أنه لم يقل في «اعترافاته» أبداً أنه رأى أبناءه، وإنما قال إن أم الفتاة هي التي كانت تخبره أنها حامل، وهي التي كانت تأخذ على عاتقها إيداع الطفل عند ميلاده ملجأ اللقطاء. ومن المعروف أنه كان لهذه الأم مصلحة في توثيق صلة روسو بابنتها لكي تستمر في استغلاله. فكانت تكذب عليه بادعاء الحمل على ابنتها، والدليل على ذلك أن تريز «كانت تقضي الكثير من وقتها في صحبة السيدات من صاحبات روسو، ولم تلحظ واحدة منهن مرة واحدة أن الفتاة حامل، بل أنهن جميعاً يقلن إنهن عرفن أنباء الحمل والأطفال من «روسو» وحده، ولم يعلمن بذلك عن أي طريق آخر!.

وذهب فريق آخر إلى أن «تريز» حملت فعلاً لكن من غير «روسو»، ومن ثم فجريمته في إرسال الأطفال إلى ملجأ اللقطاء أقل فظاعة، لأنه لم يكن يحس في أعماق قلبه بهذا الشعور الأبوي المملوء بالحنان على هذا الابن الذي ولد ولم يره أبوه، ولم يشعر بالإثم لإرساله إلى الملجأ! وسواء كانت «تريز» قد حملت منه أو من غيره أو لم تحمل على الإطلاق، فإنه كان يعلم حقاً أو باطلاً أنها حامل، ويرضى بعد علمه بالأمر أن يوضع الأبن في ملجأ اللقطاء. وربما كانت حياة «روسو» المتشردة التي جعلته هو نفسه أقرب إلى اللقطاء، هي التي هَونت الأمر على نفسه، وهي التي جعلته أقل مسؤولية عن عمله. وعلى أية حال فقد كانت حياة «روسو»- مثل كتبه- مليئة بالمفارقات، فهو مثلاً، يعيش مع «تريز» وهي، كما يروي، على جانب غير قليل من الغباء والجهل. والأصل الوضيع الحقير، ويذهب إلى بيت سيدات من أمثال «ديناي»، و «هودتو»، و «بونزنفال»، و «دوبن» ومثيلاتهن من كبريات الطبقة

الراقية، وسيدات الصالونات الفخمة الفاخرة، كذلك يتصل به بعضهن حتى يتركن في حياته أثراً غير ضئيل، وهن يعلمن أنه ذلك المتشرد الذي قضى حياته متنقلاً مغامراً كما يعلمن أنه قضى شطراً منها عشيقاً لمدام «دي فارنس» وعندها تعرف على «ديدور» و «كونديالك» وغيرهما. وقد كلَّفه الأول بكتابة القسم الخاص بالموسيقى، في «الموسوعة» التي يعدها مع «دالمبير».

خامساً: بداية السُلّم:

وفي عام 1749 قرأ روسو إعلاناً عن مسابقة تقوم بها «أكاديمية ديجون» لأفضل بحث يجيب عن السؤال: «هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على تقدم الأخلاق أم إفسادها..؟ أغراه الإعلان بدخول المسابقة، فهو الآن في السابعة والثلاثين وقد آن الأوان ليحقق الشهرة أحسست أن مئات الأضواء المتلالئة تخطف بصري. وتزاحمت حشود من الخواطر النابضة في ذهني بقوة جعلتني اضطرب اضطراباً لا يوصف!» وبدأ يعمل في البحث بهمة ونشاط مخصصاً له الساعات التي لم يكن النوم يواتيني فيها بالليل. وكنت أستغرق في التفكير مغمض العينين، وأروح أقلب أفكاري في رأسي، وأعاود تقليبها في عناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضا عنا أودعتها ذاكرتي إلى أن استطيع تسطيرها على الورق»[1] واستخدم السيدة «لوفاسير» (حماته) كسكرتيرة خاصة له إلى جانب ما تقوم به من خدمات بسيطة يحتاج إليها، «اقتصاداً لأجر الخادم» على حد تعبيره!. وحالما فرغ من البحث

---

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, P.328. وانظر أيضاً الترجمة العربية الجزء الثاني ص800.

دفعه إلى «ديدرو» فرضي عنه، وإنْ أشار ببعض تصويبات يجب إجراؤها. ثم أرسله إلى أكاديمية ديجون التي أقرته ومنحته الجائزة الأولى في 23 أغسطس عام 1740 وهي ميدالية ذهبية وثلثمائة فرانك.

والأفكار التي تضمنتها هذه الرسالة الصغيرة هي الأفكار التي نادى بها روسو طول حياته، فلم يكن غريباً عليه بعد حياة التشرد والحياة في «أحضان الطبيعة» أن يختار طريقة للطعن في العلوم والفنون، فهي أن كانت قمة التطور وتاج الاجتماع البشري. فإن «روسو» لم يصادف أي نجاح في هذا الاجتماع. ومن هنا جاءت عباراته الشهيرة: «إن الإنسان بطبيعته خَير، وأن النظم الاجتماعية هي التي جعلته شريرا...! « بل يكاد يكون فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون، في رأيه، قانوناً من قوانين التاريخ» لقد غدت مصر أم الفلسفة والفنون الجميلة، وقد غزاها الغزاة، إذن فنفوسنا تفسد بمقدار تقدم علومنا وفنوننا إلى جهة الكمال، «ولهذا كان الترف والانحلال والرق في كل زمان. الجزاء الأدنى للمجهودات المغطرسة التي حرفناها للخروج من الجهالة السعيدة التي اختارها لنا العقل الأزلي» ولا ريب أن ابن الطبيعة الذي يدعو إليه روسو ويضربه مثلاً أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطري الشهواني الأناني العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوحي به قلبه من الإلهام الوقتي. وهو ذلك المتشرد القديم قليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل منتهى درجاته والمجتمع الذي يقوم على نظام الطبيعة إنما هو المجتمع في قرى سويسرا ذات الحياة البسيطة البعيدة عن الترف «انظر إلى مصر فمدرسة العالم ذات الجد الخصب. والسماء الصافية، انظروا إلى هذه المملكة المجيدة التي خرج منها «سيزوستريس» ليحكم العالم.. ما لبثت أن أغار عليها قمبيز، ثم اليونان، ثم الرومان، ثم العرب وأخيراً الأتراك» وكذلك اليونان التي كانت مسكناً للأطباء الذين هزموا

آسيا مرتين مرة حين أغار عليها الفرس، والأخرى حين أغارت هي على الآسيويين في عقر دارهم عندما لم تكن أفسدهم بعد تقدم الفنون والآداب وانحلال الأخلاق.. وقل مثل ذلك في روما التي غزت البحر المتوسط عندما كانت أمة من الفلاحين»[1] وإذن فما هي النتيجة التي يمكن أن ننتهي إليها؟- هي أن «الترف، والإسراف، والرق، كانت في جميع الأحوال سوط عذاب سُلّط على جهود كبريائها للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التي وضعتنا فيها حكمة العناية الإلهية. فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يد ولدها» [2].

فالجواب عن سؤال الأكاديمية هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فخاً، وأن التقدم الحقيقي الوحيد هو الخلقي، وأن رقي العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها، وأن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمي، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة [3].

أحدثت هذه الرسالة ثورة في باريس، وحققت نجاحاً مذهلاً، وأصبح «روسو» من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان وانتشرت الرسالة وقرأها الناس بمزيج من الإعجاب والخوف. لكن أصواتاً ارتفعت تحذر من مثل هذه الأفكار، وما فيها من دعوة إلى الخراب والدمار. وما يترتب على الأخذ بها من الرجوع إلى الوحشية والبربرية. وكان «فولتير»

---

(1) د. محمد حسين هيكل «جان جاك روسو» ص81-82 – ول ديورانت «قصة الحضارة» مجلد 39 ص41.

(2) ول ديورانت «قصة الحضارة» مجلد 39 ص43.

(3) المرجع السابق.

على رأس هؤلاء النقاد فقال في سخرية «لو أن الناس اتبعوا قول هذا النصائح، لسرَّهم أن يمشوا على أربع!» وقد ذهب النقاد، بصفة عامة، إلى أن أفكار الرسالة تتناقض تناقضاً تماماً مع فكرة التقدم.

غير أن «روسو» لم يقف ساكناً أمام النقاد بل راح يوضح فكرته التي أراد النقاد في رأيه تشويهها فعاد يكتب ...حذار أن نستنتج مما تقدم أنه يجب علينا أن نحرق المكتبات، وندمر المدارس والجامعات والأكاديميات، فإنا أن فعلنا ذلك، رددنا أوروبا إلى الهمجية دون أن تكسب الأخلاق شيئاً.. ربما قيل إن الترف والشرف ليس أصلهما العلم، ولكنهما يرجعان في كل زمان ومكان إلى الثروة. لكنني لم أقل إن أصل الترف هو العلم. بل إنهما ولدا معاً، فأحدهما لا يعيش بدون الآخر. إن الأصل الأول للبشر هو عدم المساواة. وعن عدم المساواة تنشأ الثروة. والثروة تولد الترف والفراغ، والترف أصل وجود الفنون، والفراغ أصل وجود العلوم.

وهكذا نجد «روسو» يصل في هذه الفترة المبكرة من حياته إلى فكرة أساسية رددها في معظم كتبه ألا وهي إن التفاوت بين الناس، أو عدم المساواة بين البشر هو مصدر كل شر» وهذه الفكرة التي كانت غامضة في رسالته عن تقدم العلوم والفنون ستكون مصدر الإشعاع في رسالته عن «أصل التفاوت بين الناس» أصله: ونتائجه [1].

كان «روسو» أثناء هذه الضجة التي أحدثتها رسالته عن «تقدم العلوم والفنون»، مهموماً بشيء آخر هو ما رآه على «تريز» من آثار

(1) لاحظ أن اللامساواة هنا هي بين رجل ورجل وليس بين الرجل والمرأة، وسوف يتضح ذلك جلياً فيما بعد.

الحمل. ففكر هذه المرة في طريقة أقرب إلى الصواب والواقعية بشأن ذلك الابن المنتظر، فقد أصبح مركزه الآن يسمح له أن يكون أبا وأن يربي أبناءه. لكن الغريب أنه عزم بعد تفكير طويل أن يرسل بالوليد الجديد أيضاً إلى ملجأ اللقطاء. وكانت حجته هذه المرة أن إرسال أبناءه إلى الملاجئ العامة لتخرجهم عمالا وفلاحين خيّر لهم من البقاء معه لينالهم في مستقبل حياتهم ما ناله من قبل من شقاء وتعاسة، فتكون نهايتهم التشرد والبؤس. ومهما يكن من ضعف هذه الحجة في نظر الكثيرين، فإن حياة «روسو» وأخلاقه تجعلنا نميل إلى تصديق إمكان تأثير هذا السبب عليه حتى يجعله يقدم على ارتكاب عمل يعده غيره جريمة، ولا يكون في نظره شيئاً قط.

عاد «روسو» إلى كتابة الروايات فكتب أوبريت «عَّراف القرية» الذي يدور حول عجوز يدّعي لنفسه السحر، ينصح «كوليت» الراعية الشابة التي أحزنها أن يغازل حبيبها فتيات القرية- بأن تقوم هي بدورها بمغازلة غيره من الرجال. فيغار عليها حبيبها ويعود إليها، وتتخلل فصول الرواية رقصات ريفية مع موسيقى ساحرة، وأغاني تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة. ومثلت على مسرح الأوبرا فنالت نجاحاً كبيراً، ثم مثلت بعد ذلك أمام البلاط الملكي بحضور المؤلف الذي كان سعيداً للغاية بهذا النجاح: «سمعت حولي همس النساء فتصورتهن ملائكة، قالت واحدة للأخرى في صوت خافت» هذا رائع، خلاّب، ليس هناك لحن واحد لا ينفذ إلى الفؤاد» فبلغ بي السرور من شجن هؤلاء الرقيقات أن سال دمعي.. وتركت نفسي في هذه اللحظة القصيرة أتذوق عظمتي بكامل معناها..».

وكتب روسو بعد ذلك مقالات عن الموسيقى للموسوعة «كتبها

على عجل، وكتابة سيئة لهذا السبب، في الشهور الثلاثة التي أتاحها لي ديدرو» كما كتب بعد ذلك» رسالة في الموسيقى الفرنسية» عام 1753. وجدد «روسو» الحرب على الحضارة في مقدمة مسرحيته الهزلية «نارسيس» التي مثلتها فرقة الكوميدي فرانسيز في 18 ديسمبر عام 1752 فقال إن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذاناً في الشعب ببداية فساد سرعان ما يعجل به هذا الميل. ولا ينبعث هذا الميل في أمة إلا من منبعين خبيثين: التبطل وشهوة الامتياز».

سادساً: أصل التفاوت بين البشر:

في نوفمبر عام 1753 أعلنت «أكاديمية ديجون» عن مسابقة جديدة يجيب فيها المتسابق عن هذا السؤال: «ما الأصل في عدم المساواة بين البشر، وهل يقره القانون الطبيعي؟ «فلم يكن أجدر من «روسو» في الاهتمام بهذا السؤال والإجابة عنه «استرعى انتباهي هذا السؤال الخطير، وأدهشني أن الأكاديمية جرؤت على طرحه للنقاش، ولكن ما دامت قد أظهرت شجاعتها... فقد عكفت فوراً على مناقشته..»[1].

وسافر مع «تريز» إلى «سان جرمان» ليقضي سبعة أيام أو ثمانية عدها من أجمل أيام حياته، فهناك كان يقضي معظم النهار متوغلاً في الغابات، مفكراً في الحالة الأولى التي كان عليها البشر، مقارناً بين الإنسان كما صنعه الإنسان، والإنسان كما صنعته الطبيعة. كاشفاً عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقائه، «وارتفعت روحي نتيجة لهذه

---

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 362 والترجمة العربية الجزء الثاني ص882.

التأملات السامية إلى درجة قريبة من الألوهية. وهناك رأيت أقراني من البشر يسيرون عمياناً في طريق الأباطيل والأوهام، طريق أخطائهم، ومحنهم، وجرائمهم.. فصحُت فيهم بصوت واهن غير مسموع: «أيها الحمقى! الذين لا يكفوا عن الشكوى من الطبيعة، ألا فاعلموا أن كل مصائبكم إنما تنبثق منكم..»[1].

وكانت هذه التأملات مصدر رسالته عن أصل التفاوت أو عدم المساواة بين البشر: ولذلك لا نعجب إذا رأيناه يضرب صفحاً عن وقائع التاريخ «لأنها لا تمس موضوعاً» مطلقاً لخياله العنان، متوغلاً في ظلمات الماضي، يصل إلى المبدأ الذي هو في رأيه أساس الإنسانية كلها وهو «أن الإنسان بطبيعته خيّر أو طيب»، قائلاً أيها الإنسان إليك تاريخك كما اعتقد أني قرأته، لا في بطون الكتب، وإنما وضعها أمثالك فهم كذبة، وإنما في صفحات الطبيعة التي لا تكذب أبداً. فعندي أن الإنسان كما أبدعته الطبيعة» كان حيواناً أقل في قوته من البعض، وأقل في خفته وحركته، ولكنه مرتب في مجموعة على شكل أقرب لفائدته من أشكالهم جميعاً.

وأراده جالساً يتناول طعامه تحت شجرة بلوط، ويشرب من أول غدير يصادفه، ويجد مرقده عند جذع الشجرة التي قدمّت له الطعام.. وهناك يكون قد استكمل حوائجه. وبما أنه لا يزال في مرتبة الحيوانية فهو يقلّد صناعة الحيوانات. ويجمع بين مختلف طباعها، ويتغذى من أكثر المواد التي تصلح لمختلف الحيوانات، ويجد حياته بذلك أسهل مما يجدها أي نوع منها «تلك هي الصورة التي رآها»، «روسو» لابن

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 362 والترجمة العربية ص883.

الطبيعة الأول الذي يقضي حاجته الجنسية مثلما يقضي بقية احتياجاته لا يعرف شيئاً عن اختيار النساء، ولا يعرف ما يتبع ذلك من عواطف الحب والغرام، وإنما هو ينصت إلى فطرته التي حبته بها الطبيعة، فكل امرأة حسنة في نظره، فإذا تمت العملية الجنسية بين الرجل والمرأة على هذه الحال الحيوانية الخالصة انفصلا وبقيت المرأة حتى تضع وليدها، ثم تسعى له سعي أنثى الحيوان لصغارها. فإذا شبَّ الصغير وصار في طوقه أن يجد قوته تركته يبحث عنه. وهكذا نجد أن أكثر ما يجعل الإنسان شريراً هو تلك النظم الاجتماعية التي تفيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعي. ولهذا نراه يقارن بين الصحة الفطرية، وبين الأمراض المتكاثرة التي تنجم في الحضارة عن الثروة، فأغلب عللنا من صنعنا وكان يسيراً علينا أن نتجنبها، كلها تقريباً، بالتزام أسلوب الحياة البسيطة الذي قررته الطبيعة، فإذا كانت الطبيعة قد قضت بأن يكون الإنسان سليماً صحيحاً، فإنني أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة. وأن الإنسان الذي يتأمل هو حيوان فاسد «وتلك عبارة غريبة قالها روسو ليدهش بها، في أغلب الظن، فلاسفة عصره. وجميلات ذلك العصر على حد تعبير بعض النقاد. لكنها فيما يبدو كانت صادرة عن إيمان ويقين وهي تحوي كل ما يعتصر به قلبه من ألم لما شاهده من انحدار للمجتمع في ذلك العصر عندما جعل رذائل الترف عند قوم وبؤس الفاقة عند آخرين. فكأنه يريد أن يقول ها هي ذي آثار الفكر الإنساني بادية أمامكم، وها هي ذي المدنية التي أبدعها البشر مليئة بالشقاء والتعاسة، يضج الناس تحت نيرها، ويحصد الألم قلوبهم، فماذا كسبوا؟ العيش في ذل ومهانة، مع أنهم كانوا يطلبون السعادة والحرية. فإذا كانت المدنية هي التي أبدعها الفكر هي أصل التفاوت وانعدام المساواة بين البشر، كما أنها سبب الشقاء وانعدام السعادة وضياع الحرية. أفلا يكون

الفكر الذي أبدعها هي أساس البلاء؟. وما دامت الطبيعة لا تريد بالناس إلا الخير، ألا تكون حالة التفكير حالة غير طبيعية؟![1].

سابعاً: صومعة الناسك:

على الرغم من أن «روسو» لم ينل الجائزة المرجوة من «أكاديمية ديجون» عن بحثه «أصل التفاوت بين البشر» - كما حدث في المرة السابقة، فإنه كان سعيداً بأن البحث أحدث رد فعل عنيف من جانب المثقفين. وعلى كل حال فقد أهداه إلى «جمهورية جينيف» التي سافر إليها في أوائل أكتوبر عام 1754، وقضى فيها أربعة أشهر نعم فيها بالمناظر الطبيعية الخلابة، وبالغابات، وبحيرة ليمان «كنتُ انطلق في نزهاتي وحيداً سيراً على الأقدام وهي عادة لم أكف عن ممارستها.. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة...»[2] وفي جينيف رحَّب به القوم بوصفه الابن الضال الذي عاد إلى رشده، ويبدو أنه وقع إقراراً يؤكد فيه من جديد عقيدته البروتستانتية القديمة. واغتبط رجال الدين في «جينيف» باستعادتهم «موسوعياً» إلى حظيرة إيمانهم الإنجيلي. ورد إليه اعتباره «كمواطن»[3]. وراح بعدها يوقع بفخار: «جان جاك روسو: المواطن!.» قال: «تأثرتُ تأثراً بالغاً بما لقيتُ من عطف- المجلس المدني، والمجمع الكنسي، وعظيم احترام القضاء،

(1) الدكتور محمد حسين هيكل «جان جاك روسو» ص99-100.

(2) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 368 وانظر أيضاً الترجمة العربية الجزء الثاني ص897.

(3) كانت كلمة «المواطن» تعني الكثير في هذه الفترة، لأن ألف وستمائة فقط من سكان جينيف العشرين ألفا كانوا يملكون لقب «المواطن» وحقوقه!.

والوزراء والمواطنين وحفاوتهم بي.. حتى إنني أقلعت عن فكرة العودة إلى باريس إلا لكي أتخلص من مسكني، وأسَوي بعض الأعمال البسيطة، وأجد عملاً للسيد لفاسير وزوجته، أو تدبير معاشهما. ثم العودة مع «تريز» إلى جينيف لأستقر فيها ما بقي لي من عمر.. وإذ استقر رأيي على هذا القرار، أرجأت كل الشواغل الهامة لكي أهنأ بأصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى باريس. وكانت أكثر ألوان التسلية إلى نفسي هو الطواف حول البحيرة في قارب» [1].

ورجع إلى باريس على أمل العودة إلى جينيف مرة أخرى في أوائل الربيع، لكن جو جينيف كان قد تغير كما توطدت علاقته بمدام «ديناي» كما سنبين بعد قليل، التي كانت تُلّح عليه في البقاء. فأقلع عن فكرة العودة إلى جينيف: «ومما ساعد على تكوين هذا العزم عندي إقامة «فولتير» على مقربة من جينيف. فلقد وقر في نفسي أن هذا الرجل سيثير البلد ضدي، وأنني متى ذهبت وجدت في وطني العادات، والأفكار، والأخلاق، والنقائص، التي أخرجتني من باريس وجعلتني أنفر منها، ومن ثم فلا بد لي من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لي من خيار في مسلكي سوى أن أكون أحد اثنين: إما متحذلقاً متغطرساً لا يطاق، أو مواطناً سيئاً جباناً..!» [2].

وقد بدأ صدامه مع «فولتير» بسبب كتابه «أصل التفاوت بين البشر» وما فيه من إلحاح للعودة إلى الطبيعة التي هي أصل الحياة الإنسانية الخيّرة. وكان فولتير» قد تلقى كتابه، وأرسل إليه يقول: «تلقيت

---

1) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 369 والترجمة العربية ص898.
2) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 370 والترجمة العربية ص902.

يا سيدي كتابك الجديد الذي يهاجم النوع الإنساني، وأني أشكرك عليه.. والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة في أن يمشي على أربع. ولكن بما أنني قد فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاما، فإني لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل عليَّ استئنافها»[1].

ولكن ذلك كله كان من العوامل المساعدة في بقائه في باريس وعدم عودته إلى جينيف، أما العامل الحاسم فهو علاقته بسيدة من سيدات ذلك العصر اللائي أولعن بالكتابة والتفكير وعملن على أن يكون في صالونها كبار المفكرين والكتاب، وهذه السيدة هي «مدام ديبناي Mme d'Epinay وقد وجدت في شخص «روسو» وفي حديثه ما حببه إليها حتى قالت في مذكراتها «إنك لا تتصور مبلغ ما كنتُ أجده من اللذة في محادثته.

وهذا التعلق الشديد به هو الذي جعلها تصحبه ليشاهد عملية البناء في قصرها الجديد وعلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر، في متاخمة الغابة، كان ثمة مبنى صغير رشيق، أقيم ليكون مطبخاً خلوياً، وقد ألحق به كوخ صغير متهدم يدعى «صومعة الناسك Hermitage» وقد كان هذا الموقع المنعزل الملائم لي قد ملك على «حواسي.. فصحت»آه! يا له من مقام بديع يا سيدتي! ها هو ذا ملاذ كأنما خُلق لي! «ولم تكترث السيدة ديبناي كثيراً لقولي في ذلك الوقت. لكني في زيارتي الثانية دهشت عندما وجدت في مكان الطلل القديم،

---

(1) «قصة الحضارة»، مجلد 39 ص59 وراجع أيضاً لديورانت «قصة الفلسفة» ترجمة فتح الله محمد الشعشع مكتبة المعارف بيروت عام 1975 ص309.

منزلا صغيراً يكاد يكون جديداً بأكمله. وقد قُسّم تقسيما بديعاً.. وقد دهشُت عندما قالت «ها هو ذا ملجأك أيها الدب! لقد اخترته بنفسك. وقد أنالتك أياه الصداقة، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر في البعد عني!.» وأعتقد أنني ما شعرتُ يوما بتأثر أشد ولا أعذب مما شعرُت به إذ ذاك!.. وغسلُت بدموعي يد صديقتي الكريمة..»[1].

هامت «مدام ديناي» بفيلسوفنا حتى أنها أقامت له «صومعة الناسك» في حديقة قصرها، مؤلفة من عدة غرف أثثتها تأثيثا جميلاً. وفيما كانت هي منهمكة في ترتيبها كان «روسو» يعد نفسه للانتقال إليها فور الانتهاء منها. وانتقل إليها بالفعل في التاسع من إبريل عام 1756 ومعه «تريز» وأمها. وكان أول همه أن يترك نفسه للاستمتاع بما حولها من المناظر الريفية. فقام بنزهاته التي اعتاد عليها سيراً على الأقدام ليكتشف الطبيعة من حوله. ولما قضى رغبته من ذلك عاد يرتّب كتبه وأوراقه، ويفكر فيما يريد تأليفه.

وراح يعيش مما معه، وكان يملك ألفين من الفرنكات «تبقت من أرباحي من «عّراف القرية». ومن مؤلفاتي الأخرى، وكانت بمثابة رصيد يقيني الضيق. كما أن المؤلفات العديدة التي كانت قيد الأعداد، كانت تبشر- دونما تطفل على الناشرين، بموارد كافية، أن تمكنني من العمل على سجيتي، دونما إرهاق لنفسي، بل ودون أي أجور على أوقات الفراغ المخصصة للتريض والتجوال.!». وفضلاً عن ذلك فقد كان احترافه لنسخ القطع الموسيقية، ولم يكن هذا العمل رائجاً ولا مربحاً لكنه كان مصدر رزق مضمون.ولقد نأى- فيما يقول، بقلمه عن الجانب

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 369 والترجمة العربية ص901.

الأكثر إدراراً للربح لو أنه أتجه إلى تأليف كتب من أجل كسب العيش».. إذ من الصعب، إلى أقصى حد، أن يفكر الإنسان تفكيراً نبيلاً سامياً إذا ما كان مضطراً إلى أن يفكر طلباً للرزق فحسب!».

على هذا النحو أقام في صومعته مستمتعاً بمناظر الطبيعة الخلابة تاركاً لخياله وأحاسيسه، ولعقله العنان، يتخيل، ويحس ويفكر كما يشاء وكما يحلو له غير مكترث بحكم الناس عليه، ولم يكن معه سوى «تريز» وأمها، وهو يروي في صحفات طويلة «من الاعترافات» عن «تريز» وطيبة قلبها، وغباء عقلها، وانقيادها الأعمى لأمها، وفساد هذه الأم واتفاقها مع خصومه على الوقيعة به، وما يقاسيه هو لذلك من شقاء.

ولم يكن يقطع عليه عالم أحلامه وخيالاته سوى شخص عزيز عليه، له عليه سلطان لا يستطيع له دفعاً تلك هي «مدام ديبناي»، فكثيراً ما أفسدت عليه هذا العالم المثالي، ودعته من صومعته إلى مقرها، وهو أقل الناس ميلاً للخروج من وكره. لكنه كان يحس دائماً بأفضالها عليه، كما أنه كان يميل إليها، لذلك نراه لا يذكر تحكمها بشيء من الثورة كما هي عادته حينما يكتب عما لا يحلو له. وهون عليه هذا التحكم من جانبها، أو أنساه أياه، ما كان في نفسه يومئذ من خيالات الحب والهوى. ولكأنه بعد أن بلغ الخامسة وأربعين يريد أن يستعيد أيام الشباب الأولى. وليس ذلك عليه غريباً فقد ظل طوال عمره شاب القلب مهتاج العواطف. ولما لم يجد يومئذ شخصاً يهديه قلبه جعل ما يعطي هو ما يجول بداخله في صورة خطابات متبادلة بين عاشقين فيشبع بذلك أهواء نفسه حيث ينصت إلى خبايا قلبه، ثم ينتزع من خياله شخصاً متوهماً يتبادل معه تاريخ الغرام. وكانت هذه الخطابات الأولى هي بداية روايته من جولي Julie أو «هلويز الجديدة» كما كانت أساس «الرومانسية» التي

سيطرت بعد ذلك على أدب القرن التاسع عشر. وكان «روسو» يوم كتبها أبعد ما يكون عن التفكير في وضعها على شكل رواية تخرج الأدب عن الطريق الذي كان يترسمه من قبل وهو طريق التعقل الفني- طريق الكلاسيكية- لتدفع به إلى تيار عارم من الإحساسات والخيالات. وإنما أراد بها إشباع رغبة وقتية قامت في نفسه وتحكمت في فؤاده.

في ذلك الوقت دخلت حياته امرأة جديدة هي «مدام دودتو Mme d Houdetot» التي تقترب من عامها الثلاثين، وهي زوجة شقيق «مدام دينباي»، وعشيقة «سان لامبير.. Saint- Lambert» صديق روسو الحميم، «وفي عنفوان نشوتي، زارتني السيدة «دودتو»، فكانت هذه أول زيارة لي في حياتها، ولكنها – لسوء الطالع- لم تكن الأخيرة.. كنُت قد تعرفتُ إليها قبل زواجها، ولكني لم أرها بعد ذلك إلا في الحفلات» [1].

لم تكن جميلة فقد أتلف الجدري وجهها، ولا كانت عيناها ذات جاذيبية أو نفاذ بل كانت قصيرة النظر لكنها كانت جميلة القوام حلوة الابتسامة، جذابة الحديث، لطيفة المعشر. فلما رآها فيلسوفنا لأول مرة أخذ حديثها بمجامع قلبه. فلما زارته للمرة الثانية أولع بها حباً، ووجد منها الشخص الذي يملأ قلبه. ويعطيه بعض المسرات التي جُنَّ بها فؤاده، «فقد كانت على كثير من المواهب المستحبة، فكانت تتقن العزف على «البيان»، وتجيد الرقص، وتقرض أشعاراً بديعة للغاية. أما أخلاقها فكانت ملائكية ذات قلب لا يقوى على أن يكره أحداً. وقد ساعد ذلك كثيراً في إذكاء وجدي نحوها» [2].

---

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, p. 402.

(2) Ibid, P. 409.

وتوطدت علاقته بالسيدة الجديدة بعد زيارتها له، وكانت تقيم على مقربة من «صومعة الناسك» التي اختارتها له «مدام ديناي» يقول: «كان بين الصومعة ومقام مدام دودتو، مسافة ميل واحد، وكنت في كثير من سياحاتي أمضي الليل هناك. ولقد ذهبُت ليلة معها بعد أن تناولنا طعام العشاء في خلوة شرعنا في التريض في الحديقة يكلؤنا نور القمر البديع، وسرنا حتى وصلنا إلى نبع ماء تحيط به شجيرات أقامته هي بناء على مشورتي, فيما له من تذكار خالد للبراءة والغبطة!.

وفي هذه الروضة جلست وأياها على أريكة من الحشائش، تحت خميلة محملة بالزهور جلست إليها أناجيها بالكلمات التي يوحي بها قلب الرجل في أرق ألوان الحب وأقواها ويا للدموع النشوانة التي أرقتها عند قدميها!. ويا للدموع التي سكبتها هي الأخرى رغماً عنها.. وأخيراً صاحت في انفعال لا إرادي: كلا! لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط، وأبداً لم يحب عاشق بهذا الوجد!. ولكن صديقك «سان- لامبير» يتصنت علينا، وليس لقلبي أن يحب مرتين!» ولم أخرج عن الصمت إلا بالزفرات، واحتضنتها.. وأي عناق!» [1].

لم تكن مدام «ديناي» بالسيدة الهينة، ولا اللينة في النظر إلى تلك العلاقة التي ألهبت قلبها حتى أكلته نار الغيرة، وحركت فيها أسلحة الأنثى من خديعة ومكر فاندفعت وراءها، ولم تترك سبيلاً تمكنها من الحصول على أدلة مادية تقيم بها الحجة على هذا الحب إلا سلكته. ولقد وصلت من ذلك حتى أغرت «تريز» لكي تقدم لها الخطابات التي ترسلها مدام «دودتو» إلى روسو. ولولا إخلاص «تريز» و «ادعاؤها» أن

Ibid, P. 414. (1)

«روسو» يمزق هذه الخطابات بعد قراءتها، لملكت مدام «ديبناى» سلاحاً ماضياً، إلا أن «تريز» وقفت في هذا الظرف الدقيق موقف الأمانة لصاحبها، ولم تترك لهذه السيدة الغيورة سبيلاً لإدراك غايتها، ولم تخبر «روسو» بشيء من ذلك إلا بعد أن ضاقت بها ذرعا، هناك أفضت له بكل شيء، وأوقفته على ما كلفتها به مضيفتها، وتركت له اختيار السبيل لمواجهة العواقب السيئة المحتملة. غير أن «روسو» اندهش لأنه لم يلحظ أي تعبير من «مدام ديبناى» بالنسبة لعلاقتها معه، بل إنها على العكس كانت ترسل له بين الحين والحين تعاتبه، في خبث، أنها لم تعد تراه، ما السبب في أنني لا أراك يا صديقى العزيز...؟ إنني قلقة بصددك، لقد وعدتنى مخلصاً، أن تعكف على المجيء والذهاب بين القصر و«الصومعة».. وعلى ذلك فقد تركتك تفعل ما يحلو لك. ولكن لقد تركتك أسبوعاً دون أن تبر بوعدك، ولولا أنني نُبئت بأنك بخير، لظننتك مريضاً»!.

وتبدي في حالات أخرى علامات الود والحب. «فذات يوم وقد أشتد الصقيع، فضت حزمة أرسلتها هي لي فوجدت فيها عدة أشياء تكفلت بإعدادها لى، ووجدت من بينها «تنورة نسائية تحتانية Petticoat قصيرة من الصوف الإنجليزي الناعم تذكرت أنها اعتادت أن ترتديها، وأبدت رغبتها أن أصنع منها لنفسي صدرية Waistcout وكان أسلوب رسالتها ساحراً، مليئاً بالحنان والسذاجة. وبدا لي هذا الدليل على عنايتها بي بالغ الحنان، حتى لكأنها قد تعرت لتكسونى، حتى أنني ومن فرط انفعالي، قبلت الرسالة و«التنورة» عشرين مرة وأنا أبكي!» [1]

Ibid, P. 407. (1)

على أن مدام «ديناي» كانت شديدة الاستياء من علاقة «روسو» الجديدة بالسيدة «دودتو»، فقد أكلت الغيرة قلبها كما قدمنا، وواصلت سعيها لدى «تريز» للحصول على بعض الخطابات التي تريد التمسك بها. ولئن صادفت بعض النجاح عند «تريز» لشدة إلحاحها، ولما استعملت من الحيلة، أوغرت به صدر امرأة لم تعد ترى في «روسو» أكثر من مُعين لها على الحياة، فإن ذلك لم يفدها عند روسو إلا تشبثاً منه بالشدة والجفاء مما أنفد صبرها وأثار حفيظتها. على أن المرأة كبتت غيظها ولم يبد منها ما يدل على التغير من ناحية «روسو» أو النفور منه. ثم فكرت في أن تبعده مؤقتاً عن هذا الجو: عن باريس أولاً وعن مدام «دودتو» ثانياً. فعرضت عليه أن يذهب معها لزيارة أحد الأطباء في سويسرا لاستشارته في بعض أمور سرية. وأغلب الظن أنها كانت حاملاً من أحد الأصدقاء هو «جريم» وكانت تريد أن تضع حملها الآثم في جينيف، والأعجب من ذلك أنها اصطحبت زوجها وابنها معها في هذه الرحلة، أما «روسو» فقد تردد بادئ الأمر وذلك لعلمه أن الدعوة لم تكن صادرة عن إخلاص. ثم انتهى بأن اعتذر عن إجابة طلبها اعتذاراً فيه بعض الجفاء. وهنا انتهزت مدام «ديناى» الفرصة لتشهر به، ولتظهر إنكاره لجميلها في أبشع صورة وسافرت إلى سويسرا. ومن هناك أرسلت له خطاباً يحوى غير ما اعتاد أن يسمعه منها. ولما أرسل لها يخبرها أنه يرى مع اعترافه بجميلها السابق، أنه يجب عليه ترك الصومعة، لولا مشورة أصدقائه عليه بالبقاء حتى ينتهى الشتاء، ويحل الربيع، لأسرع إلى ذلك، ردت عليه رداً كان من القسوة بحيث لم يدع له مجالاً للتفكير. قالت في ردها. «ومادمت -قد رغبت- في ترك «الصومعة»، فقد كان خليقاً بك أن تفعل، فإننى أعجب من أصدقائك الذين منعوك. أما أنا فلست استشير أصدقائى فيما يتعلق بواجباتى.

وليس لدى مزيداً أقوله فيما يتعلق بواجباتك!» [1]. كان إنذاراً واضحاً بالطرد لم يدع له لحظة واحدة للتفكير، وكان لا بد له من مغادرة «الصومعة» فوراً مهما كانت حالة الطقس، أو حالته هو الصحية، حتى لو اضطره ذلك إلى المبيت في الغابات- على حد تعبيره- فعزم على أن لا يبيت في «الصومعة» في اليوم الثاني من وصول الخطاب مهما يكن الأمر. ويعلم أحد الأصدقاء بالورطة التي يعانى منها، فيعرض عليه بيتاً صغيراً كان يقتنيه في حديقة داره ويقبل العرض في تأثر وعرفان. وينقل متاعه بسرعة خلال يومين إلى مسكنه الجديد، ويكتب في الحال إلى السيدة ديبناى يقول: ما كان ثمة ما هو أبسط، ولا هو ألزم، من أن أخلي منزلك، يا سيدتى، ما دمت لا تقرين بقائي فيه. وبناء على رفضك الأذن لي بأن أمكث في «الصومعة» بقية الشتاء بادرت إلى مبارحته في الخامس عشر من ديسمبر» لقد كان مقدراً لي أن أدخله بالرغم منى، وأن أخرج منه كذلك!.. وأنى لأشكر لك الإقامة التي أتحتها لي هناك، وقد كنت خليقاً بأن أكون أكثر شكراً لك، لو أن الثمن الذي دفعته كان أقل فداحة!.» [2].

ورغم أنه غادر «صومعة الناسك» بهذه الطريقة المهينة، فقد قضى فيها عاماً وثمانية أشهر بين التنزه في أحضان الطبيعة، والتأمل في كتبه الجديدة، فها هنا خطط لكتابيه «هلويز الجديدة» التي كان يقرأ منها كل مساء صفحات على تريز وأمها عند الوفاة. و «أميل: أو التربية»، وصنف «قاموس الموسيقى»، وكتب رده الشهير على «دالمبير» وانعزل عن مجتمع باريس بكل ما فيه من موبقات، ذلك المجتمع الذي نخر

.J. Rousseau: The Confessions, P.2451-452. (1)

Ibid, P. 453. (2)

السوس في قوائمه» على حد تعبيره. وازداد تعلقاً بحلمه في العودة إلى الطبيعة بما فيها من بساطة ونضارة.

ثامناً: خطاب إلى دالمبير:

دخل «روسو» صومعة الناسك في 9 إبريل عام 1756، وغادرها في 15 ديسمبر عام 1757 فقضى فيها ما يقرب من عشرين شهراً، دخلها وهو منشرح الصدر سعيداً بعزلته الجديدة، مبتهجاً بما حولها من جمال طبيعي، وخرج منها مريضاً متعباً منهك النفس. وعلى الرغم من أن «مدام ديبناى» – بعد أن علمت أنه غادر الصومعة- أرسلت له رسالة من جينيف مؤرخة في 17 يناير 1757 حاولت فيها أن تفتح باب الصلح وتنتفي كلماتها ليبدو أسلوبها ملائما، لكنه لم يشأ بعد كل ما حدث أن يطمئن إلى هذه السيدة من جديد أو يثق فيها، ولهذا لم يرد على الخطاب وانتهت مراسلاتهما عند هذا الحد، بل انتهت العلاقة بينهما إلى القطيعة.

استقر «روسو» في مسكنه الجديد، وبدأت خواطره تهدأ، وعاد إلى أعماله، واستمر يكتب خطابات «هلويز الجديدة» بحرارة وإحساس متقد، وقلم موسيقي عذب، وسمحت له حياته الجديدة بالاستمرار، في ذلك العمل بطريقة منتظمة. في هذه الأثناء وصله المجلد السابع من «الموسوعة» يتضمن مقال «دالمبير» عن جينيف، الذي امتدح فيه القساوسة الكالفينين على عقيدة التوحيد التي يتكتمونها، وناشد سلطات «جينيف» أن تسمح بإقامة مسرح وعكف «روسو» على تفنيد هذا المقال وما فيه من اقتراحات، وفي أكتوبر عام 1758 نشر «خطاب إلى مسيو دالمبير عن المسرح» وكان على اعتدال لهجته إشهار حرب على عصر العقل، وعلى زندقة فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر، وفساد

أخلاقها. وكان الخطاب طويلاً بلغت صفحاته 135 صفحة، ونال نجاحاً هائلاً. فما أن نشر حتى تخاطفته الأيدي، وتوالت طبعاته، وانبرى للرد عليه كثيرون حتى بلغت أكثر من أربعمائة رد على هذا الخطاب.

لقد كان «فولتير» هو الذي أشار على «دالمبير» باقتراح إقامة مسرح في مدينة جينيف، فكان رد «روسو» بمثابة الهجوم على فولتير مما أدى بينهما إلى عداوة لا هوادة فيها فكيف يريد «فولتير» إقامة مسرح للتمثيل الهزلي في جينيف مدينة روسو ومسقط رأسه؟. لقد كان «روسو» من قبل قد وجه هجوماً عنيفاً للعلوم والفنون، واعتبرهما أساس الفساد، وسبب تعاسة الناس وشقائهم، فلم يكن معقولاً إذن أن يترك مقالاً كهذا يمر دون أن يتصدى بالرد عليه.

وجاء الرد طويلاً مفصلاً، مليئاً بالأفكار، معتدلاً في لهجته، محاولاً أن يناقش عدة أمور هامة في رأيه منها: أيمكن أن نقول عن المسارح والملاهي أنها سيئة أم حسنة؟ وهي تتفق مع الآداب العامة، وهل يمكن إباحتها في مدينة صغيرة مثل جينيف؟ وهل يمكن أن تكون مهنة التمثيل مهنة شريفة؟ وهل تستطيع الممثلات أن يكن على جانب من العقل مثل سائر السيدات؟ وهل تكفي القوانين لقطع دابر الفساد؟ وهل يمكن مراعاة هذه القوانين مراعاة دقيقة؟ ثم راح يجيب عن هذه الأسئلة متخذاً من «رجل الطبيعة» مثلاً أعلى ينبغي السير على منواله. ناسباً أصل المسارح والملاهى إلى ما أحدثته البطالة من ملل، ولهذا اعتبرها ذات أثر سيء على المدينة «ولو أن الناس اعتادوا العمل، وصرفوا ما زاد من وقتهم في القيام بواجباتهم نحو عائلاتهم وأولادهم لما أخذت يوما فكرة اللهو بنفوسهم. فإن اعتبار العمل يجعل البطالة غير ممكنة الاحتمال، والضمير الحى يطفئ في النفس الميل إلى

لمسرات التافهة. أن ملل الإنسان من نفسه وثقل حمل البطالة، ونسيان لميول الطبيعية البسيطة هي التي تجعلنا نلجأ إلى المتع الشاذة!» وما دام لتخلص من الملل هو الأصل في تشييد المسارح والملاهى، فإن ذلك يعني أن المؤلف سوف يستهدف إدخال السرور في نفوس الناس، وهو بهذا مضطر إن يدغدغ عواطف الناس، ويساير ميولهم، ويجارى أهواءهم «ومن ثم فلا يجوز أن ننسب إلى المسرح أية قدرة على تغيير الأخلاق أو العواطف من شخص يلتزم بالسير وراءها، وإضفاء البهجة عليها، ومَنْ كتب لينتقد الذوق العام ويصدمه فهو إنما يكتب لنفسه لا لغيره..!».

ومن هذه الملاحظات المبدئية يتضح أن الأثر الذي تتركه المسارح ودور الملاهى إنما يقتصر على تدعيم الأخلاقيات القائمة وتقويتها، فضلاً عن أنه يزيد من حدة الغرائز الفطرية، ويجدد في النفس نشاط جميع الشهوات. ويعلم الناس جميعاً أن الممثلين يحيون حياة العربدة والفساد، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسى الفاتنات هي مضرب الأمثال في الفوضى الجنسية، وبؤرة للفساد، ومع ذلك كله يعبدهن المجتمع الفرنسى!. وربما كانت شرور المسرح هذه في المدن الكبرى مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا في شطر ضئيل من السكان، أما في مدينة صغيرة مثل جينيف، فإن سمومها تتغلغل في جميع الطبقات. ومن الخُلف اللامعقول أن يقال أحياناً إن المسرح مدرسة يتعلم فيها المرء مكارم الأخلاق، لأن الناس يملون بسرعة من النصائح الجافة، بل تراهم يميلون- في الأعم الأغلب- إلى عدم الثقة فيها أو في إخلاصها. وهم يبتهجون إذا ما وجدوا على المسرح انعكاساً للحياة الواقعية.

إن الناس يسيرون في الحياة بغرائز وأخلاق ولدت معهم، أو

اكتسبوها منذ الصغر، ودعتها فيهم البيئة التي يعيشون فيها، ولن يستطيع ممثل أن يهدم في لحظات قليلة ما تم بناؤه في زمن طويل. بل نراه، على العكس، يشجع فينا هذه الميول، ويدفعنا إلى الاستغراق فيها. يضاف إلى ذلك أن التمثيل لا يصور الحياة الحقيقية أبداً، وإنما هو فكرة المؤلف يلبسها شخصيات أبدعها خياله، وأنطقها بلسانه. ومن ثم فهو لا يهذب الأخلاق، ولا يناصر الفضيلة، ولا يمثل الحقيقة، ولا يزيد على سخرية أبدعها الناس لإضاعة الوقت. وليس التمثيل فحسب، بل أيضاً النصوص التي تعرض: التراجيديا تستدر دموع الناس وشفقتهم حتى أنها لا تبقى عندهم دمعاً يراق أو شفقة تظهر أمام آلام الحياة الواقعية. أما الكوميديا فهي ترمى لغرض بائس فهي لا تطلب من الإنسان أن يكون فاضلا أو شريفا أو غير شرير، بل أن يكون بعيداً عن مواطن السخرية من الآخرين، وذلك بأن يندمج في سلوكهم ويسير في ركابهم، ويأخذ بما تعارفوا عليه، ولم يتعارف الناس إلا على أكاذيب وأوهام وضلالات. وهنا يوجه «روسو» انتقادات لاذعة لشيخ الكوميديا الفرنسية «موليير» محللاً بعض مسرحياته التي يهزأ فيها بأقدس العلاقات، ويعبث بأوجب الحقوق احتراماً: حقوق الآباء على أبنائهم والرجال على زوجاتهم، والسادة على خدمهم..الخ. فإذا كان هذا هو شأن موليير فما بالك بغيره!

ويهمنا هنا بصفة خاصة ما قاله «روسو» في هذا الخطاب عن النساء. فهو يرى أن المسرح كثيراً ما يصور المرأة على أنها حكيمة، مدبرة، عالمة، تحيط بنواصى المعرفة» وتلك خصال أبعد ما تكون عنها. وإنما هي حكمة المؤلف يضمها على أفواه النساء، وفي تصرفاتهن، وحركاتهن، فيبعث في نفوس النساء غروراً، وصلفاً، ويضعف الرجال أمامهن وكيف لا يضعف الرجل وهو يرى على لسان المرأة المتشدقة

على المسرح أمثلة بديعة، وحكماً جميلة، وأفكاراً رائعة، فيحسبها تملك فوق سلاحها الطبيعي للسيطرة على الرجل، ألا وهو سلاح الجنس، قوة أخرى هي رجاحة العقل، والذكاء المتقد، والفكر الثاقب. غير أن الحقيقة هي أن هذه القوة هي قوة المؤلف وليس للمرأة فيها نصيب وتسلط النساء على الرجال ينطوي على خطر كبير على الأخلاق العامة والملكات والقدرات البشرية!. لقد كانت ثقة روسو بالمرأة قليلة، وتقديره لملكاتها ضئيل أيضاً، يعتبرها بؤرة الشر والفساد، عندما تجذب الرجل وتهبط به إلى الضعة والاحتقار. ولهذا نراه ينصح في نهاية الخطاب: أن لا يختلط الرجال بالنساء إلا في مناسبات خاصة. وسوف نرى فيما بعد الصورة التي رسمها للمرأة من حيث دورها، ومكانتها في المجتمع التي ينبغي أن تختلف عن تربية الرجل.

ولم يفلت «هذا الخطاب» من انتقاد المفكرين والفلاسفة نقداً عنيفاً حتى اعتبره بعضهم عملاً من أعمال الخيانة، أدى بعد ذلك إلى أن حظرت الحكومة نشر الموسوعة أو بيعها. وذهب بعضهم إلى أنه مليء بالمتناقضات لفيلسوف ينادي بالحرية والمساواة، ويطعن في امتيازات الإشراف، في حين أنه ظل طوال حياته يعيش في كنفهم. وهو يطعن على العلوم والفنون وقد أمضى حياته كلها في نسخ النوتة الموسيقية وكتابة الروايات الغرامية. وهو يندد بالمسرح مع أنه كتب للمسرح «عراف القرية» و «نرسيس»، فضلاً عن أنه كان دائم الذهاب لمشاهدته. وهو يشن حملة عنيفة على النساء، مع أنه ظل طوال حياته ينتقل بين أحضانهن من «مدام دفارنس» التي كان يناديها بـ «ماما» مع أنه ضاجعها وبصحبة رجل آخر دونما خجل، إلى مدموزيل «دبرى» ومدام «بازل»، ومدام «لارتاج»، ثم إلى مدام «ديناي» و مدام «دودتو»، وبعدهما مدام «لكسمبورج» وغيرهن فضلاً عن «تريز» الفتاة الريفية المسكينة التي

عاشت معه عشيقة، حتى وفاته. وهو أخيراً يكتب عن التربية، وضرورة الاهتمام بالأطفال والعناية بنشأتهم مع أنه يلقي بأطفاله في ملجأ اللقطاء! فخطابه، إذن، من ألفه إلى يائه ليس سوى مجموعة من المتناقضات الصارخة، والمفارقات العجيبة!.

تاسعاً: هلويز الجديدة:

كان «روسو» قد بدأ في صومعة الناسك» في كتابة القسم الأول من روايته «هلويز الجديدة» وهي رواية ضخمة زادت صفحاتها عن الألف صفحة في ربيع عام 1759، لكنه لم يتمها إلا في سبتمبر عام 1758، وأرسلها إلى أحد الناشرين في هولندا، وظهرت في فبراير 1761 تحت عنوان طويل هو «خطابات عاشقين يقطنان مدينة صغيرة في سفح جبال الألب جمعها ونشرها جان جاك روسو» ولم يطلق عليها اسمها المعروف الآن هو «جولي: أو هلويز الجديدة» إلا بعد انتشارها وإعجاب الناس بها، مما جعل بطلتها علماً على الحب والغرام أشبه «بليلى والمجنون»..!.

وكان اسم «هلويز Heloise» دائماً في فرنسا منذ القرن الثاني عشر فقد كانت هذه الفتاة بطلة لأشهر قصة غرام في العصور الوسطى حدثت بين فيلسوف لاهوت فرنسي في التاسعة والثلاثين من عمره هو بطرس ابيلارد P.Abelard (1079-1142) كان أعظم أساتذة اللاهوت في عصره، وأعظم بطل للحب أيضاً. فقد أحب تلميذته الصغيرة «هلويز» التي أحضرها خالها القس فلوبير Fulbert» كاهن كنسية نوتردام- لتتلقى علوم الدين والحكمة على يد الفيلسوف. وسرعان ما اتصل بينهما غرام عنيف، انتهى بأن فقدت الفتاة عذريتها وحملت منه!. فعرض الفيلسوف على خال الفتاة أن يتزوجها سراً على طريقة القساوسة في ذلك العصر

الذين لم يكن يسمح لهم نظام الكهنوت بالزواج. غير أن الفتاة رفضت خشية أن يضر هذا الزواج بمستقبل حبيبها! وقالت «أليست أنانية، بل خطيئة، أن تختص امرأة لنفسها برجل خلقته الطبيعة ليكون للناس جميعاً..؟ وهل تستطيع العبقرية التي تميل إلى التأمل الفلسفي الخالص وإلى تدبر المسائل المقدسة أن تحتمل أعباء الأسرة: صراخ الأطفال، وثرثرة المرضعات، وضجة الخدم.؟! ووضعت الفتاة حملها، وكان ولداً، وعندما علم أهل الفتاة بما حدث قرروا الانتقام من الفيلسوف العاشق. فقاموا بقطع أعضائه الجنسية وهو نائم!. أما هو فقد اتجه بعد الحادث إلى الاعتزال في «دير سان دنيس» في ضواحى باريس، أما حبيبته «هلويز» فقد دخلت دير «أرجنتي»! وأصبحت من القديسات [1]. واكتفى العاشقان بتبادل الخطابات التي كتبت باللاتينية ثم ترجمت إلى الفرنسية فخلدت ذكراهما.

كانت قصة «هلويز الأولى» شهيرة في فرنسا، معروفة ومتداولة على ألسنة الناس. ولقد رأى «روسو» أن مجموعة خطابات العاشقين في روايته تستحق الخلود مثلما استحقت خطابات هلويز وأبيلارد، ومن ثم فقد أطلق عليها أسم «هلويز الجديدة» بعد إقبال الناس عليها.

وبطل رواية «روسو» شاب من سواد الشعب هو «سان – بيرو» أوتي حظاً من الذكاء والعلم، فضلاً عن مشاعره الرقيقة، وعواطفه الملتهبة وولعة بالطبيعة ومناظرها الخلابة، وعزوفه عن المدينة بما فيها

---

(1) د. إمام عبد الفتاح إمام «الفيلسوف المسيحي.. والمرأة» ص12-13 العدد الثالث من سلسلة المرأة في الفلسفة – دار التنوير ببيروت عام 2009.

من جلبة وفساد ومخاطر. وهو باختصار شخصية «روسو»، وقد دعته البارونة «دتاج d'Etage» ليعلم ابنتها «جولي..Julie» تماماً كما فعل القس «فلوبير» عندما أتى «بهلويز» وهي في السابعة عشرة من عمرها إلى أبيلارد- أما جولي فقد كانت يومئذ في الثامنة عشرة من عمرها وعلى جانب من الجمال والرزانة، ولكن رقتها وصنعتها كانت تفوق جمالها ورزانتها. وسرعان ما ربط بين الفتاة ومعلمها حب عنيف كتماه زمناً وواصلا الدراسة. ولم يكن في استطاعة الأستاذ أن يفاتح تلميذته بما يضمر لها في قلبه من حب وغرام، فلجأ إلى الاتصال غير المباشر فأرسل لها خطابين طويلين بث فيهما أشواقه وغرامه. وحرك الخطابان في نفس الفتاة لهيب الغرام، لكنها مع ذلك لم تجب عنهما بشيء، فأرسل لها خطاباً ثالثاً فبدأت ترد عليه. وتبودلت بينهما الخطابات ثم تواعدا على اللقاء في جوف الليل تحت الأشجار، وهناك يظفر بأول قبلة: ارتعشت يداي، برعده خفيفة، وشفتاك المعطرتان، شفتا جولى حبيبتي، تضغطان شفتي، وأنا بين ذراعيها، وبأسرع من البرق انطلقت من كياني نار مباغتة، كلا! ليست نار السماء أقوى ولا أسرع من تلك النار التي أحرقتنى!.. وهمد قلبى تحت وطأة اللذة!» وتتعدد اللقاءات، وفي واحدة منها حرضها حبيبها على الفرار معه، لكنها ترفض خشية أن تسبب لوالدها العار، ومع ذلك ترتمى في أحضانه، ويشتد لهيب الوجد، وفي سكرة الحب تفقد بكارتها. وتقول الفتاة أنها في لحظة غفلة واحدة قد أسلمتني إلى تعاسة أبدية. لقد سقطت في وهدة العار التي لا مخرج منها» وتظل الفتاة، رغم ذلك، على علاقتها الآثمة حتى تحمل منه، وتضطر إلى إجهاض نفسها. ويعرض حبيبها على والدها، عن طريق صديق للطرفين، الزواج من الفتاة، غير أن الأب يحتدم غيظة ويعتبر الطلب سخفاً غير معقول، إذ كيف يمكن لشريف من أسرة عريقة أن

يهبط إلى هذا المستوى فيزوج ابنته من أفاق لا مأوى له؟ وهنا ينتهز «روسو» الفرصة ليطعن في «الأسر الشريفة» ويتساءل ماذا صنعت لمجد وطنها أو لسعادة بني الإنسان، سوى أنها أعانت الاستبداد وظلم الناس؟ غير أن هذه الحجج وأمثالها وكل ما ذكره في كتابه «أصل التفاوت» أو «خطاب إلى دالمبير» من طعن على نظام الأشراف لم يحرك ساكناً عند «البارون»، بل اعتبار مجرد الطلب إهانة له ويقول لابنته إنه لن يزوجها إلا لصديقه «فولمار» وهو شريف روسي كريم ملحد، متقدم في السن «وتتزوجه الفتاة تكفيراً عن ذنوبها وطاعة لأبيها، ولكنها تظل تراسل «سان – بيرو» خفية وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها. ويدهشها أن تجد «فولمار» إنساناً طيباً، وفياً حريصاً على راحتها، منصفاً كريماً مع الجميع، رغم إلحاده، وتكتب لحبيبها وتسمي زواجها «زواج المصلحة» وأنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا، فانحرافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها.

وأخيراً تعترف لزوجها بلحظة الإثم ويقول إنه علم بها، وصمم على ألا يذكرها أبداً. ويخبرها أنه لم يكن قط إثماً وتأكيداً لغفرانه لها يدعو «سان بيرو» للحضور والإقامة مع الأسرة معلماً خاصاً لطفلهما. ويحضر «سان بيرو» ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً في وفاق حتى يفرق بينهما الموت، ويغيب الزوج العجيب أياماً وتخرج «جولى» مع حبيبها للتجديف في بحيرة جينيف، ويريها الصخور التي كتب عليها أسمها وهو يبكي وتمسك بيديه المرتعشة لكنهما يعودان بريئين من الإثم إلى بيتها [1].

---

(1) ول ديورانت: «قصة الحضارة» مجلد ص39 ص273-274.

ويصف «روسو» بإسهاب طويل يستغرق عشرات الصفحات حياة جولي وزوجها وأبنائها على نحو ما وجدها «سان بيرو» فهو يصف الخدم والمزارعين وعلاقة بعضهم ببعض. كما يصف منزل «فولمار» وحديقته وطيوره. وهو يبث خلال هذه الأفكار الأثيرة عنده، ضرورة تضامن الأغنياء والفقراء تضامناً يقوم على العطف والرحمة من جانب الأغنياء، والاحترام والمحبة من جانب الفقراء. وضرورة عدم الاختلاط بين الرجال والنساء إلا في الحفلات العامة التي يجتمع فيها الجنسان بإشراف علية القوم. ومضار البطالة وضرورة تعويد الناس من كل الطوائف على مداومة العمل. وضرورة تربية الأطفال في أحضان الطبيعة، وغرس عادة حب الطبيعة والمناظر الطبيعة في قلوبهم بحيث لا تفسدهم المدن بعد ذلك. وكذلك حب البر بالفقراء والمحتاجين وما إلى ذلك من وسائل السعادة حسب إلهام الطبيعة ويسوق «روسو» هذه الأفكار كلها في أسلوب موسيقى عذب يسر القارئ، ويحبب إليه الغابات بأشجارها وأزهارها وطيورها وعدوانها ونسيمها الرقيق.. وذلك في رأيه هو المنوال الذي ينبغي أن ننسج عليه لنصل بالإنسان إلى السعادة الحقيقية.

والوصول بالإنسان إلى السعادة الحقيقية يبدأ من تربية الأطفال حسب إلهام الطبيعة ووحيها، وذلك بتوجيههم في الطريق الطبيعي، وليس تقييدهم بأصفاد المجتمع وقيود عاداته. بل بمعاملة الطفل طوال مدة طفولته على أنه طفل ضعيف محتاج لغيره، ولا يناقش كما يناقش الكبار ذوي العقل، في وقت لا يكون فيه عقله قد تشكل بعد.

كما أن «روسو» يناقش في روايته الكثير من المسائل الدينية، «فجولى» وحبيبها يعجبان كيف يمكن لـ"فولمار" أن يكون بهذه الطبيعة

الرقيقة الكريمة دون إيمان ديني؟.

ويرى «سان بيرو» أن «فولمار» رغم أنه أقام في كثير من الأقطار الكاثوليكية لم يغيره ما رآه من إيمان أهلها، فمذهبهم لا يتجه إلا لمصلحة كهنتهم.. بل إن القساوسة أنفسهم في الخفاء يهزأون سراً بما يعلمون ويثبتونه في الأذهان علانية!.

وتنتهي الرواية نهاية مأساوية «فجولي» تخرج مع أهلها للنزهة على شاطئ البحيرة، وفيما يجرى ولدها يسقط في الماء، فتلقي بنفسها وراءه، وتتمكن من إنقاذه، لكنها تمرض على إثر ذلك وتلازم الفراش، لكنها- وهي على فراش الموت من الحمى التي أصابتها وهي تنقذ ابنها من الغرق- تدفع لزوجها بخطاب إلى حبيبها غير مغلق تعلن له فيه أنه كان على الدوام حبها الوحيد، وهكذا لطمت زوجها لطمة عنيفة، وقابلت وفاءه وثقته بها بهذا الرفض القاسي حتى وهي على فراش الموت.

ومع ذلك فقد كان الأسلوب الموسيقي العذب الذي امتازت به الرواية من أكبر أسباب الثورة الرومانسية التي سيطرت على الأدب الفرنسي، ثم في بقية أوروبا، في القرن التاسع عشر فالأبطال رومانسيون ينغمسون في عواطفهم وانفعالاتهم إلى حد الجنون، وهم من ناحية أخرى يضعفون ويستسلمون إلى حد الجريمة، ثم يتوبون إلى حد الطهر ويعيشون حياة وردية حالمة!.

عاشراً: إميل أو التربية:

كان «روسو» قد خطط أثناء إقامته في الصومعة لكتاب هلويز الجديدة» و «إميل أو التربية»»، وعندما غادرها وأستقر في مقامه الجديد

عكف بمهمة ونشاط على الانتهاء منهما، ونشر الأول في فبراير 1761، والثاني في مايو 1762 لكنه نشر فيما بينهما كتابه «العقد الاجتماعي» في إبريل 1762.

أما كتاب «إميل» فقد كان في البداية مجموعة من التأملات والملاحظات الخالية من الترتيب والتنسيق وإرضاء لأم طيبة قادرة على أن تفكر، وهي ابنة «مدام دوبن» وقد أراد «روسو» أن يكون الكتاب تذييلاً لرواية «هلويز الجديدة» وإجابة عن السؤال: كيف يمكن «لجولي» أن تربي أبناءها؟!. وقد شرعت في البداية في وضع مذكرة من عدة صفحات، ثم استهواني الموضوع بالرغم مني، فتحولت المذكرة إلى كتاب هو بلا شك ضخم بالنظر إلى عدد صفحاته، لكنه صغير جداً بالنسبة للموضوع الذي يعالجه، وسأتحدث قليلاً عن أهمية التربية الصالحة. كذلك لن أتوقف لأثبت فساد التربية الراهنة، فقد قام بهذا العمل ألف رجل غيرى من قبل، كما أنني لن أحاول أن أحشو كتاباً بما يعرفه الناس جميعاً. وكل ما ألاحظ أن صيحة ارتفعت منذ زمان بعيد ضد منهج التربية القائم، وذلك دون أن يهتم أحد باقتراح ما هو أفضل منه...»[1].

وهكذا يذهب «روسو» في مقدمة كتابه ليخبرنا أنه كتبه في بداية الأمر تلبية لرغبة سيدة من سيدات المجتمع كانت صديقة ناقشته عن تربية ولدها، فوضع مذكرة في الموضوع ثم امتدت صفحاته لتصل إلى ألف صفحة «على الرغم من!» كما يقول المؤلف، فالكتاب إذن. وضع

---

(1) جان جاك روسو: «إميل أو التربية ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر عام 1954 ص19-20.

كما وضعت «هلويز الجديدة» **سداداً لغرام روسو بالنساء!**.

وهو يستهل كتابه بعبارة شهيرة «كل شيء صنعه الخالق، خرج حسناً من بين يديه، ثم طرأ عليه الفساد والنقص بين يدي الإنسان. فهو يكره شجرة على أن تحمل ثمار شجرة أخرى، ويلزم أرضاً أن تنبت غلات أرض أخرى، وهو يخلط الطقوس والفصول، ويخصي كلبه، وحصانه وعبده، وهو يخرب كل شيء ويشوهه، فهو لا يريد شيئاً كما صنعته الطبيعة [1]» وهو هنا يقابل بين ما صنعته الطبيعة من خير، وما أدخله المجتمع من فساد، ويندد بالحضارة وما تجره من إفساد وتشويه هما الأساس في شقاء الإنسان وتعاسته. ولولا تدخل الإنسان مسترسلاً في كذبه وغروره، مدعياً إصلاح ما أبدعته يد الخالق لظل الناس في سلام وأمن وطمأنينة. فليرجع الناس سيرتهم الأولى حتى يعود إليهم نعيم الطبيعة. وإصلاح التربية هو وسيلتنا إلى ذلك. فالطرق القائمة في التربية تلقن الطفل، في العادة أفكاراً بالية فاسدة، وتحاول جعله آلة طيعة في مجتمع منحل، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه، وتشوهه فتهبط بمستوى قدراته. وقد أخمد هذا التعليم المدرسي كل الحوافز الفطرية، وجعل التربية عذاباً يتوق كل طفل إلى تجنبه [2].

وهو يلقي على التربية مسؤولية كبرى في تنشئة الإنسان وتشكيل كيانه «فكل ما ليس لدينا عند ولادتنا، ونحتاج إليه عندما نكبر نحصله عن طريق التربية» وهذه التربية تقوم بها ثلاث وسائل هي: الطبيعة، والناس، والأشياء: فالنمو الداخلي لقوانا وأعضائنا يأتي من تربية

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» مجلد 39 ص294.
(2) المرجع السابق.

الطبيعة، ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تأتي من تربية الناس، ومحصول تجاربنا الخاصة عما يحيط بنا إنما نحصله من تربية الأشياء[1] فإذا نحن وجهنا هذه الوسائل وجهة حسنة في سبيل الطبيعة، استطعنا أن نصل إلى «الرجل الطبيعي» بأتم معانيه، الذي نمت ملكاته واستطاع أن يقف في مواجهة الحياة بقوة وصلابة، وتلك غاية تتناقض مع ما ترمي إليه التربية القائمة أتم التناقض، إذ أن الأخيرة تستهدف «صقل الفرد» ليدخل في سلك المجتمع، وهي تحد من ذاتيته خوفاً من أن يقف إبداعه في مواجهة الجماعة.

إنها تريد من هذا الفرد المصقول أن يذوب في الجماعة، ويعيش لها وعليها، على خلاف رجل الطبيعة الذي يعيش لنفسه. ومَنْ عاش الفرد من أجل الجماعة وخضع لنظامها، انعدمت ذاتيته، وتلاشت شخصيته المستقلة، فيعتقد أنه لا فردية له، ولا كيان ولا وجود، إلا كجزء من الجماعة التي ينتمي إليها. وذلك إغراق في تقديس الجماعة على حساب الفرد مما يخالف قانون الطبيعة الذي يقضي بتربية الإنسان ليكون رجلاً مستقلاً صالحاً لكل مركز يضعه فيه حظه، أو الظروف التي يوجد فيها.

أما مسار التربية الذي تخيله «روسو»، فهو للأسف الشديد، مسار أرستقراطي، فرسول الحرية والمساواة ونصير الضعفاء والفقراء الذي نشأ في بيئة معدمة، وقضى شطراً كبيراً من حياته مشرداً بائساً، يقرر أن الفقراء والضعاف في غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم في الحياة يكرههم على احتمال العيش الذي هم فيه! وهو لهذا يختار الطفل الذي

---

(1) «أميل أو التربية» ص29.

يضع له برنامج التربية – «إميل»- نبيلاً غنياً ولد في طقس معتدل ونشأ قوياً صحيحاً. ويختار له مربياً يشترط فيه أن يكون شاباً أعزب يعرف واجبات الرجولة ويستطيع أن يلهمها الطفل من غير أن يعلمه إياها. وهو يقسم حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث فترات: أثني عشرة سنة طفولة، ثم ثماني سنوات صبي، وأخيراً عمر غير محدود للإعداد والزواج، والأبوة وللحياتين الاقتصادية والاجتماعية.

فى الفترة الأولى تكون التربية كلها تقريباً بدنية وخلقية، وهو يلح أن يترك الطفل حراً كما أبدعه الخالق حراً. لكن الحضارة الحديثة قضت مع الأسف أن يولد الإنسان عبداً، وأن يموت عبداً، فهو يوم يولد يخاط في قماط، ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش، وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا، وأن ظهر بالمظهر الإنساني. وليس من شأن القماط وغيره من الأربطة إلا أن يعوق جريان الدم، وأضعاف الطفل، ومنعه من النمو، ويؤثر ذلك كله تأثيراً مباشراً على طباع الطفل وخلقه.

فلا يكاد الطفل يخرج من بطن أمه، ولم يكد يتمتع بحرية الحركة، وبمد أعضاءه، حتى يعطى قيوداً جديدة، فهو يقمط ويضجع مثبت الرأس ممدد الساقين، مدلى الذراعين بجانب الجسم، وهو يحاط بالبياضات والعصائب من كل نوع إحاطة لا تسمح له بتغيير وضعه، وهو يكون سعيد الحظ إذا لم يشد شداً يمنعه من التنفس..» مع أن المولود حديثاً يحتاج إلى مد أعضائه وتحريكها إنقاذاً لها من الخدر الذي يستمر زمناً طويلاً[1] فلا بد أن يترك الطفل وشأنه، ويترك له من حرية الجسم ما يشجعه على الحركة ينمو نمو طبيعياً صحيحاً معقولاً، ولتنمو غرائز

(1) «إميل أو التربية» ص38-39.

الطبيعة مع نمو جسمه، ومن هنا فإنه لن يحتاج إلى طبيب مدى الحياة! ويشن «روسو» حملة على الطب والأطباء لأنه مظهر من مظاهر المدنية الحديثة كالعلوم والفنون والفلسفة، ولهذا فقد أفسد على الناس تصورهم للحياة الطبيعية، ولهذا فهو يعتقد أننا إذا ما أردنا أن نخلق رجالاً شجعاناً ذوي شهامة، فإن علينا أن نبحث عنهم في الأماكن التي لا يوجد فيها أطباء مطلقاً، وحيث يجهل الناس آثار الأمراض، فلا يفكرون في الموت على الإطلاق، فقد جبل الإنسان على احتمال الألم صابراً، وعلى تقبل الموت مطمئناً، لكن الأطباء بأوامرهم، والفلاسفة بتعاليمهم، والقساوسة بتحذيراتهم هم الذين يستذلون قلبه ويفسدون عليه مماته فليكن تلميذي في غنى عن هؤلاء الناس جميعاً وإلا رفضته، فما أريد أن يفسد على أحد عمله، وإنما أريد أن أربي تلميذي وحدي، أو لا يكون لي شأن في أمره.

ولقد قضى الفيلسوف الحكيم «جون لوك» شطراً من حياته في دراسة الطب ثم أوصى أن لا يعطى الطفل دواء لا على سبيل الاحتياط، ولا لما يطرأ على صحته من انحراف ضعيف[1]. وما كان أغنى الأطفال عن دواء لو أن أمهاتهم عنيت بهم العناية الواجبة، ولم يتركنهن للخدم والمراضع، يفسد الخدم ملكاتهم الخلقية، كما تفسد المراضع صحتهم واستعدادهم الطبيعي!.

فإذا ما بدأ الأولاد في تعلم الكلام، كان علينا أن نحرص فلا ندفعهم إلى المنطق السريع، فذلك يجني عليهم ويؤخر نموهم أكثر مما يدفعهم إلى التقدم، وهو يقارن بين طفل المدينة وطفل القرية. الأول

---

(1) المرجع السابق ص62.

ينشأ في غرفة مغلقة فلا يحتاج إلا إلى الهمهمة أو «التأتأة» البسيطة لكي يفهمه المحيطون به، فهو لا يكاد يحرك شفتيه حتى يجد من حوله مشقة في الاستماع إليه.. أما في الريف فإن الأمر مختلف، ذلك لأن المرأة الريفية ليست على مقربة من طفلها دائماً، فيضطر الطفل أن يتعلم قول ما يريد بصوت واضح مرتفع حتى تستطيع سماعه. وهذا أفضل جداً من أن تقوم الخادمة المترجم لطفل المدينة [1] وهذا هو ما يسميه «روسو» بالتربية السلبية التي يجب اتباعها مع الطفل في السنين الأولى من حياته، فلا يجوز أن يلقن شيئاً ولا أن يُلقى إليه بشيء مطلقاً، بل هو يترك للأشياء يعالجها وتعالجه. واعتياد الطفل ذلك منذ نعومة أظافره يضمن تنمية الملكات والقوى الخاصة الكامنة فيه [2].

على أن نوع التربية لن يكون واحداً أو متساوياً بالنسبة للجنسين، فروسو يرى أن تربية الفتى ليصير رجلاً، أمر مختلف أتم الاختلاف عن تربية الفتاه لتكون امرأة وأماً.

حادي عشر: تربية النساء:

أخطر جزء في كتاب إميل بالنسبة لبحثنا الراهن على الأقل (وسوف نعود إلى هذا الموضوع في الفصل الرابع وهو بعنوان «تربية المرأة») هو الكتاب الخامس الذي يبدأ فيه «روسو» بتحديد ملامح الرجل والمرأة «فصوفي» ينبغي أن تكون امرأة، كما يجب أن يكون «إميل» رجلاً. فلنفحص ما بين الجنسين من تشابه واختلاف» فإذا

---

(1) المرجع نفسه ص95.

(2) د. محمد حسين هيكل «جان جاك روسو» ص239.

استبعدنا اختلاف الجنس، كان للمرأة مثل ما للرجل من أعضاء» فلها عين الأعضاء، وعين الاحتياجات، وعين الخصائص»[1]. ثم تظهر بعد ذلك فروق خاصة بكل جنس، وفروق عامة تبدو أنها لا علاقة لها بالجنس مع أنها ترتبط به رغم ذلك. وهي فروق تؤثر في الأخلاق: فيجب أن يكون أحدهما فاعلاً قوياً، وأن يكون الآخر منفعلاً ضعيفاً. وقد خُلقت المرأة لتروّق الرجل وتكمن قوتها في فتنتها، وهي الفتنة التي تثير الرجل وتشحذ قوته، وأن كانت مقاومة المرأة تزيد من هذه القوة- ولما كانت هذه المقاومة ضرورية، فإنها تجعل الهجوم والدفاع متبادلاً بينهما، كما تبرز جرأة أحد الجنسين (وهو الرجل) وحشمة الآخر (المرأة) ومن هنا كان الحياء والخجل اللذان تسلح بها الطبيعة الجنس الضعيف لإخضاع الجنس الأقوى. بل أن الدلال والتصنع أمر شائع بين جميع الإناث تقريباً».، حتى بين الحيوانات حتى حين يكن أكثر استعداداً لتسليم أنفسهن.

ولقد نظم الخالق هذه العلاقة بين الجنسين، فهو حين وهب الإنسان ميولاً لا حًد لها، أضاف العقل إلى الرجل لكي ينظم هذه الميول، ويحكمها ويسيطر عليها، وعندما منح المرأة رغبات لا حًد لها، أضاف إليها الحياء والاحتشام حتى يردعها، ويكبح جماحها. وهذا منح المرأة سهولة في إثارة الشهوات أكثر مما منح الرجل سهولة إشباعها.

من ذلك نتّبين أن الواجبات التي يلتزم بها الجنسان ليست واحدة، ولا يمكن أن تكون واحدة، وإذا ما اشتكت المرأة من هذا التفاوت

---

(1) جان جاك روسو «إميل أو التربية» ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر عام 1954 ص655.

كانت مخطئة فليس هذا التفاوت نظاماً بشرياً على الإطلاق، ولا هو حكم مبتسر من أحكام العقل، بل هو من عمل الطبيعة. وكل زوج خائن يحرم زوجته ثمن واجبات جنسها، أما الزوجة الخائنة فهي تفعل ما هو أعظم لأنها تحل الأسرة، وتقطع جميع الروابط الطبيعية، فهي حين تعطى زوجها أطفالا ليسوا من صلبه فقد خانته وخانتهم، وذلك بإضافتها الغدر إلى عدم الوفاء. ولهذا فليس من المهم أن تكون الزوجة وفية فقط، بل يجب أن يحكم زوجها وجيرانها، وجميع الناس أنها كذلك، وأن تكون محتشمة منتبهة، وأن تقدم إلى الآخرين، وإلى ضميرها الخاص، شهادة على فضيلتها.

ولهذا كان الزعم بأن الجنسين متساويان، وبأن واجباتهما واحدة ضربٌ من الكلام الفارغ، الذي لا ينطوي على شيء قط لقد حاول أفلاطون في «الجمهورية» أن يمنح النساء ما يمنح الرجال، لكن بسبب أنه قام بإلغاء الأسرة، فقد عاد لا يعرف ماذا يصنع بالنساء، فاضطر إلى جعلهن رجالاً! [1].

ولما كان للرجل والمرأة واجبات مختلفة، وأخلاق مختلفة، استتبع ذلك، أن تكون لهما تربية مختلفة، فهما متعاونان تبعاً لقوانين الطبيعة، ولكن ليس من الواجب عليهما أن يقوما بنفس الأعمال، بل أعمال متنوعة ومتباينة توجهت ميول مختلفة. ونحن إذا ما أردنا أن يكون التوجه سليماً، يجب احترام كل ما يميز الجنس على أنه من صنع الطبيعة، وعلينا أن نتبع دائماً مناهج الطبيعة. ولذلك ينبغي على المرأة أن تعلم أنها تكون أكثر قيمة كامرأة، وأقل قيمة كرجل، فيا أيتها الأم العاقلة

(1) المرجع السابق، ص665.

لا تجعلي من ابنتك رجلاً صالحاً، لما ينطوي عليه ذلك من تكذيب للطبيعة، واصنعي منها امرأة صالحة، وثقي بأن ذلك أفضل لنا ولها [1].
لكن أيعني ذلك أنه يجب أن تنشأ الفتاة جاهلة بكل شيء، مقتصرة على الواجبات المنزلية وحدها. وهل يصنع الرجل من رفيقته خادمة له؟ وهل يجعل منها تمثالاً متحركاً.؟ ليس هذا ما تقوله الطبيعة التي منحت النساء روحاً كثيرة الرقة، بالغة اللطف، والطبيعة، على العكس تريد من المرأة أن تحكم وتفكر، وتحب، وتعرف- تلك هي الأسلحة التي أنعمت بها الطبيعة عليها لتقوم مقام القوة التي تنقصها، ولذا ينبغي عليها أن تعرف أموراً كثيرة على أن تكون معرفة هذه الأمور مناسبة لها.

إن كلاً من المرأة والرجل خُلق من أجل الآخر، غير أن اتباع أحدهما ليس مساوياً للآخر، فالرجال تابعون للنساء برغباتهم، والنساء تابعات للرجال برغباتهن واحتياجاتهن، ونحن نعيش بدونهن أكثر مما يعشن بدوننا، وهن تابعات لمشاعرنا ولما نجعل من ثمن لمميزاتهن، ولما يكون عندنا من إيمان بفتنتهن وفضائلهن، ولهذا قضى قانون الطبيعة أن يكون النساء تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن، ومن أجل أطفالهن [2].

لا يتوقف أمر الرجل الذي يعمل صالحاً على غير نفسه، فهو يستطيع مواجهة الرأي العام، لكن المرأة إذا ما عملت صالحاً لا تكون قد قامت إلا بنصف عملها، فما يدور حولها من حديث لا يكون عندها أقل أهمية مما هي عليه بالفعل، ومن هنا فلا بد أن يكون نظام تربيتها

(1) المرجع السابق ص668.
(2) نفس المرجع ص669.

مختلفاً عن نظام تربيتنا، لأن رأي الناس قبر للفضيلة بين الرجال، لكنه عرش المرأة وتاجها.

والفتاة تحب الزينة منذ ولادتها تقريباً، وهي لا تريد أن تكون حسناء وجميلة فقط بل أن يراها الرجل كذلك، وهذه المسألة تشغل بالها منذ البداية. أما الفتى فهو لا يهتم، إذا كان ذا شخصية مستقلة- بما يقال عنه، فهو لا يلقي بالاً للعب. ولا ينبغي للمرأة أن تكون كالرجل، بل من أجل الرجل، وذلك لكي يكون من تضعه من الرجال أقوياء أيضاً. ولهذا كانت بنات «أسبرطة» يتدربن كالفتيان على التمرينات العسكرية، لا ليذهبن إلى الحرب، بل ليحملن ذات يوم أولاداً قادرين على احتمال المشقة فإذا ما تزوجت الفتاة، لا يراها أحد من الناس بعد ذلك، بل اقتصر جهدها على تدبير المنزل، والعناية بالأسرة، وهذا هو طراز الحياة الذي تأمر به الطبيعة والعقل جنس الأنثى. فكانت الأمهات يضعن أصح رجال العالم وأقواهم. وهكذا جمعت المرأة اليونانية في الزمن القديم بين الحكمة والأنس، وبين الأخلاق والجمال[1].

وللأطفال من الجنسين ألعاب مختلفة: فالصبي ينشد الحركة والضوضاء والطبول، والمركبات الصغيرة وما إلى ذلك. أما الفتاة فهي تفضل ما يمتع النظر، ويصلح للزينة: كالمرايا، والحلي، والأشرطة، لا سيما» الدمى»، الدمية هي اللعبة المفضلة عند هذا الجنس، ويدل ذلك دلالة واضحة على ميلها نحو مصيرها وما قدرته لها الطبيعة. فهي تقضى نهارها مع لعبتها، فتغير ثيابها، وتلبسها وتعريها مائة مرة، وتقوم بترتيبات جديدة من الزخارف التي قد تكون بسيطة وساذجة لضعف مهارة

(1) «إميل أو التربية»: ص673.

الأصابع، لكنها مع تنمية ميولها وبعض الوقت وانهماكها في هذا العمل الدائم دون ملل تنمو مهارة الأصابع وتتقن الزخرفة. وتمر الساعات دون أن تشعر بانقضائها، حتى أنها تنسى وجبات الطعام، فهي أكثر شوقاً إلى الزينة منها إلى الطعام، فإذا ما قيل إنها تزين لعبتها لا شخصها، قلنا إنها لن تبقى على هذا النحو إلى الابد، وإنما هي تنتظر الزمن الذي تكون فيه لعبتها هي نفسها [1].

والواقع أن جميع الفتيات الصغار يتعلمن القراءة والكتابة على مضض تقريباً، ولكن استعمال الإبرة هو ما يتعلمنه عن رضا دائماً: فالخياطة والتطريز والتخريم أمور تتعلمها الفتاة من تلقاء نفسها، ويرتبط بذلك وشي الفرش، والرسم الذي هو فن قريب من فن اللبس الأنيق، ولهذا فإنه ينبغي أن لا يسمح لها أن تكرس نفسها لأي عمل من أعمال النبوغ الأخرى التي تضر بواجبها، والفتاة بصفة عامة أطوع من الفتى وأكثر ميلاً للخضوع للسلطة، ولهذا يجب أن تتعود قمع أهوائها جميعاً حتى تخضع لعزيمة الآخرين وتحكماتهم. فتقطع ألعابها وتعود إلى أشغالها بلا تذمر.

وهنا تكفي العادة، فالعادة لا تفعل سوى مساعدة الطبيعة، «ولكن البنات طائعات دائماً، ولكن لا ينبغي أن تكون الأمهات متصلبات دائماً، فلا يجوز جعل البنت تعيسة، لا يجوز جعل خضوعها شاقاً، بل يكفي حملها على الشعور به. وتعد الحيلة من مواهب جنس الأنثى الطبيعة. ولما كُنت مقتنعاً بأن جميع الميول صالحة بذاتها، فإني أرى تعهد الحيلة، كالميول الأخرى، بالتربية، وإن كان المهم أن تمنع سوء

(1) المرجع السابق ص676.

استخدامها [1]».

خلاصة القول إن المرأة، في رأي روسو، لم تخلق للعلم، ولا للحكمة، ولا للتفكير، ولا للفن، ولا للسياسة، وإنما خُلقت لتكون أماً تغذى الأطفال بلبنها، وتتعهد ضعفهم بحسن رعايتها، وتسلمهم بعد ذلك للأب أو المربي ليعنى بهم على نحو ما توحى به الطبيعة. ثم تعود هي للقيام بوظيفة الأمومة. فتضع مولدوها الجديد، وتتعهد بالرعاية كما فعلت مع المولود الأول. وهي وأطفالها دائماً في عنق الرجل، يقوم عليهم، ويكد من أجلهم ويربيهم وفق الهام الطبيعة أما العانس، والأرملة، ومن نكبت في زواجها، فكل أولئك لا يدخلن في حساب روسو، وربما كان جوابه إذا سئل عنهن أنهن خرجن عن نظام الطبيعة فلا مكان لهن عندي!.

تلك هي الخطوط العريضة في كتاب «إميل»- بإيجاز شديد- وسوف نعود، كما قلنا، إلى رأيه في تربية المرأة فيما بعد. ويكفي هنا أن نقول إنه رغم ما فيه من آراء سيئة عن المرأة عموماً. فقد كان في رأي النقاد من أمتع ما ألف في التربية إطلاقاً، ويروى أن الفيلسوف الألمانى العظيم «كانط» تناوله ليقرأه، فاستغرق في قراءته استغراقاً أنساه الخروج للمشي في نزهته اليومية [2].

اثني عشر: روسو وهيوم:

لم يستقبل كتاب «إميل: أو التربية» استقبالاً حسناً كما كان يتوقع

---

(1) المرجع نفسه ص682-683.

(2) ول ديورانت «قصة الحظرة» مجلد 39 ص294.

فلم يقابل الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتدت أن يحظ بظهور كل مؤلفاتي» [1] بل على العكس ثارت السلطات ضده، فمُنع الكتاب من التداول، وأصدر برلمان باريس قراراً بالقبض عليه في 9 يونيو عام 1762.

وصدر قرار آخر من حكومة جينيف بالقبض عليه أيضاً في 18 يونيو من نفس العام. أما بالنسبة للجمهور «فإن كتاباً سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة، ومن استحسان من العامة، فإن كل ما كتبه وقاله لي أقدر الناس على الحكم، عزز رأيي في أنه أفضل مؤلفاتي وأهمها قيمة، لكن كل الذي قيل لي، قيل في أغرب مظاهر التحوط والحذر، وكأنما كان من المهم تكتم الاستحسان واعتباره سراً..!» [2].

ولما علم الدوق دي لوكسمبرج- الذي كان يقيم روسو في ضيعته- بأن قراراً على وشك الصدور من البرلمان- الذي كان يقوم بأمر القضاء في باريس- بإلقاء القبض عليه، بسبب تعرضه في «إميل» للعقيدة المسيحية. وتقريره على لسان شخصية من شخصياته هي «قسيس السافوا» ما أسماه بالديانة الطبيعية- نصح «روسو» بالفرار وكانت أحاديث زوجته السيدة دي لوكسمبرج M.de Luxembourg أدعى إلى الجزع منها إلى الطمأنينة. فقد مالت دائماً إلى حملي على مغادرة البلاد. وكانت لا تنى تنصحني بالنزوح إلى انجلترا «حيث كان بوسعها أن تتبع لي كثيراً من الأصدقاء بينهم «هيوم» الشهير، الذي كان صديقاً لها منذ

---

(1) J.J. Rousseau: The Confessions, P.529. والترجمة العربية، الجزء الثالث ص1317.

(2) Ibid, P. 529.

أمد بعيد..» [1] على أنه رفض وفضل السفر إلى «برن» «حامية الفضيلة وموئل الحرية» كما يقول على أنه هناك تعرض لكثير من المضايقات، فقد شن عليه رجال الدين حملات عنيفة من فوق المنابر، ولقبوه بـ «عدو المسيح»، «وطوردتُ في الريف كما لو كنتُ ذئباً مسعوراً» [2] على أنه وسط هذا الجو المحموم تلقى زيارة أدخلت في قلبه عظيم السرور «تلك كانت زيارة مدام دي فرديلان Mme de Verdelin وابنتها حيث قضيتا يومين أو ثلاثة معي..» [3] ولقد تعرضت هذه السيدة أيضاً لكثير من المضايقات والبذاءات أثناء نزهاتها مع «روسو»، وقذف المنزل بالحجارة ليلاً. وربما لهذا السبب كانت السيدة مقتنعة تماماً، بأن من الخير لروسو أن يغادر هذا المكان، وأن إقامته في انجلترا، أكثر ملائمة له من أية إقامة أخرى. وأسهبت له في الحديث عن الفيلسوف الاسكتلندي «ديفيد هيوم» (1711-1776)- الذي كان في زيارة لباريس في ذلك الوقت، وعن محبته لي، وعن رغبته في أن يكون ذا نفع لي في بلاده. وقد كان هيوم قد اكتسب في فرنسا صيتاً ذائعاً، لا سيما بين أصحاب «الموسوعة» ومن هنا فقد شعر «روسو» بالرغبة في التعرف على «هذا الرجل النادر، واكتساب صداقته» وضاعف من رغبة روسو إلحاح السيدة دي بوفلير Mme de Boufler صديقة هيوم الحميمة، التي كانت تدفعه دفعاً إلى الذهاب إلى انجلترا، ولقد تلقى «روسو» من «هيوم»- عن طريق هذه السيدة خطاباً مطيباً للخاطر إلى أقصى حد. فقد وجه إليه، هذه الرسالة دعوة ملحة للذهاب إلى انجلترا وتطوع بكل ما له

---

(1) Ibid, P. 533.

(2) Ibid, P. 580.

(3) Ibid, P. 580.

من مكانة. وبكل أصدقائه لجعل إقامته هناك مستحبة ومريحة.

وقد استشار «روسو» صديقاً له. وكان مواطناً انجليزياً صديقاً لهيوم أيضاً فأكد له حسن ظنه بالفيلسوف الاسكتلندي، وروى له نادرة أدبية عنه، أدهشتني بقدر ما أدهشته «تلك هي أن «ولاس» الذي وضع كتاباً يعارض فيه آراء هيوم بشأن سكان العالم القديم، كان متغيباً عندما طُبع كتابه، فتطوع «هيوم» بمراجعة «البروفات» وبالإشراف على إصدار الكتاب، وكان هذا المسلك مما يصادف هوى في نفسي إذ أنني كنتُ، بنفس الروح، قد توليتُ بيع نسخ من أغنية كانت قد نُظمت ضدي[1]. لكنه مع ذلك كله، ظل متردداً في السفر إلى انجلترا لأنه بطبعه لم يكن ميالاً إلى انجلترا، ولهذا لم تكن لديه الرغبة في اتخاذ قرار السفر إليها، ولا حتى في الكتابة إلى «هيوم».

واستمرت مضايقات الناس، وكتبت منشورات، بألفاظ بذيئة فاتهمته بأنه «ربيب العاهرات» وأنه ألقى بأبنائه إلى عرض الطرق، وأن الإفراط في الملذات هو الذي أنهك قواه، ونقل له مرض الزُهرى، إلى غير ذلك من ألفاظ كُتبت- على حد تعبيره- بمياه من أنهار الجحيم لا بمدادا! وفي ليلة عصيبة هاجموا داره هجوماً عنيفاً بالحجارة عَرَّض سكان البيت للخطر. مما اضطره إلى الانتقال إلى جزيرة صغيرة يبلغ محيطها نصف ميل هي جزيرة «سان سبير» واستقر بعد عناء وطاب له المقام في هذه الجزيرة حتى شعر أنه لم يعد يتوقع من الحياة شيئاً آخر فهو الآن قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره لكن راحته للأسف لم تطل، ذلك أن مجلس شيوخ «برن» أمره في 17 أكتوبر 1765 بأن يرحل من

---

(1) Ibid, P. 582.

وانظر أيضاً الترجمة العربية الجزء الثالث، ص1444.

الجزيرة، والمقاطعة كلها خلال خمسة عشر يوماً! فإلى أين يمضي..؟! تلقى من هيوم في 22 أكتوبر الذي كان يومها سكرتيراً للسفارة البريطانية في باريس- رسالة يقول له فيها «إن محنتك العجيبة التي لم يسمع بمثلها- وفضلاً عن عبقريتك- لا بد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك.. إنك لواجد في انجلترا أماناً مطلقاً من كل اضطهاد، لا بفضل ما تمتاز به قوانينا من روح سمحة فحسب، بل بفضل الاحترام الذي يكنه كل إنسان هناك لشخصك..»[1].

وأخيراً قرر «روسو» أن يقبل دعوة هيوم إلى انجلترا. وسافر الاثنان إلى «دوفر» في 10 يناير 1766، ومنها إلى لندن في 13 يناير، وفي لندن توافد النبلاء والنبيلات، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز مسكن «روسو» الجديد، لكنه ضاق بهذه المجاملات ورجا هيوم أن يجد له بيتاً بعيداً عن لندن، فكان له ما أراده لكنه هنا أيضاً تلقى من البريد أكثر مما أراد، وشكا من نفقات البريد التي كان عليه أن يدفعها، حتى أنه عندما جاءه «هيوم» بشحنة من لندن رفض أن يتسلمها وطلب إليه أن يردها إلى مكتب البريد ونبهه «هيوم» إلى أن موظفي البريد في هذه الحالة سوف يفتحون الخطابات المرفوضة، ويطلعون على أسرارها، ثم تطوع هيوم أن يفتح ما يرد إلى روسو من رسائل ولا يأتيه إلا بما يراه هاماً منها، ووافق الأخير، ولكنه سرعان ما توجس شراً من عبث هيوم ببريده! [2].

لكن سرعان ما دبت الهواجس في نفس «روسو»، وراحت

---

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» مجلد 39 ص339-340.

(2) المرجع نفسه ص345.

الشكوك تعتمل في نفسه من ناحية «هيوم» ذلك لأن الصحف الإنجليزية بدأت تغير من لهجتها في حديثها عن «روسو» فكثرت المقالات التي انتقدت الفيلسوف غريب الأطوار، وتحدثت بعضها عن أشياء اعتقد أن «هيوم» وحده هو الذي يعرفها، ويمكن أن يزود بها الصحف. وعلى كل حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئاً للدفاع عن ضيفه. وظن أن هناك «مؤامرة» عليه يشترك فيها خصومه القدامى: فولتير، وديدرو، وجريم وغيرهم من نجوم التنوير. وهكذا بعث إلى هيوم في 10 يوليو بخطاب طويل من ثماني عشرة صفحة من القطع الكبير، اتهمه بأنه كان شريكاً في هذه المؤامرة وأنها بهذه العبارة: «لم يبق لي غير كلمة واحدة أقولها لك، إن كنت مذنباً فلا تكتب إلي، إذ لا جدوى من الكتابة، وثق أنك لن تخدعني ولكن إن كنت بريئاً فتفضل بتبرير نفسك.. وإلا فوداعاً إلى الابد..»[1]. وكان رد هيوم موجزاً (في 22 يوليو 1766) ولم يجب عن التهم لأنه خلص إلى أن روسو أشرف على الجنون[2] وصمم «روسو» الآن على العودة إلى فرنسا أياً كان الخطر والثمن.

ثالث عشر: خاتمة العذاب:

وصل روسو إلى فرنسا في 22 مايو عام 1767 بعد مقامه التعس في انجلترا وبعد أن أشرف على الجنون، ووجد بعض العزاء في الترحيب الذي لقيه فقد عرض عليه كثير من الفرنسيين- وكلهم من النبلاء- بيتاً يقيم فيه، فاختار ضيعة لميرابو الاب قريبة من باريس، ثم اختار قلعة للأمير «كونتي» في 21 يونيو 1767، ووضع الأمير القلعة

---

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» مجلد 39 ص350.

(2) نفس المرجع في نفس الصفحة.

بأسرها تحت تصرفه، وأرسل الموسيقيين ليشنفوا أذنيه بالموسيقى الهادئة، والغريب أن «روسو» فسر ذلك على أنه اتهام له بالجنون! وخامره الظن، مرة أخرى، أن هناك تآمراً عليه! ففر إلى ليون، واعتزل في فندق، وعلى باب حجرته كتب قائمة بأسماء الأشخاص الذين يعتقد أنهم يأتمرون به ثم أرسل في طلب «تريز»، واستقبلها بالفرح والدموع، وقرر آخر الأمر أن يتزوجها وقد تم هذا القران في حفل مدني بالفندق في 30 أغسطس عام 1768 (1).

وفى يناير 1768 انتقلا إلى بيت بمزرعة في «موكان»، لكن الشتاء كان شاقا، فألحت عليه «تريز» في الرحيل إلى باريس فعادا في 24 يونيو 1770، وأقاما في الطابق الرابع من نزله القديم في الشارع الذي أصبح اسمه الآن: شارع جان جاك روسو في حي من أشد أحياء المدينة ضجيجاً (2).

وحين بدأ الربيع عام 1778 طلب بيتاً في الريف فدعاه المركيز «رينيه» ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفي على نحو ثلاثين ميلاً من باريس، فذهب إليه في 20 مايو، وهناك راح يجمع عينات من النبات، ويعلم النبات لابن المركيز البالغ من العمر عشر سنوات وفي أول يوليو تعشى بشهية مع أسرة مضيفه. وفي صباح اليوم التالي أصيب «بسكتة» ووقع على الأرض، فرفعته تريز إلى فراشه، لكنه وقع منه، واصطدم بالأرض المبلطة صدمة حادة أحدثت قطعاً في رأسه تدفق منه الدم، وصرخت «تريز» مستغيثة فحضر المركيز، ووجد أن «روسو» قد

(1) المرجع نفسه ص363-364.
(2) المرجع نفسه ص365.

فاضت روحه.

تلك كانت حياة «روسو» – فيلسوف المتناقضات والمفارقات: فيلسوف يعيش بين أحضان النساء حتى أنه ليصعب على المرء إحصاء عددهن- يأكل من طعامهن، ويسكن في بيوتهن، ويستمتع بخيراتهن جسداً وروحاً- ثم لا يقول كلمة واحدة دفاعاً عنهن- لكنه والحق يقال يبكي تحت أقدامهن أحياناً ويبلل صدورهن أحيانا أخرى بدموعه، ثم يقف منتصباً ليتحدث عن ضعف المرأة وقوة الرجل!.

ولقد حدث الشيء نفسه مع الفيلسوف الاسكتلندي «ديفيد هيوم» الذي أنقذه من براثن أعدائه في فرنسا، ودعاه لصحبته في انجلترا، وأكرم وفادته وأقبل عليه القوم من الإنجليز من المفكرين والصحفيين والأدباء والمثقفين بصفة عامة يرحبون به ويرفعون من قدره، لكن ينتهي به الأمر إلى اتهام هيوم بالخيانة والتآمر- بل يذهب إلى أن الإنجليز جميعاً قد تآمروا عليه مع أبناء وطنه: فولتير، وديدرو، وجريم وغيرهم من أعلام التنوير!.

وهو لا يعيش إلا بفضل الأشراف والأغنياء، لكنه يشن عليهم هجوماً عنيفاً ويعتبرهم سبب الفساد والانهيار الأخلاقي في فرنسا- وقد يكونون كذلك بالفعل- غير أن المهم أنه كان يعيش معهم، ويعتمد عليهم، ويحتمي بهم!.

وسوف نفصل ذلك كله في الفصول القادمة

الفصل الثاني

تأليه الطبيعة

«لا تجعلي من ابنتك رجلاً صالحاً،
لما ينطوي عليه ذلك من تكذيب
للطبيعة..»

إميل 668

«الطبيعة لا تكذب مطلقاً، بل كل ما
يأتي من الطبيعة يكون صادقاً..»

أصل التفاوت ص40

أولاً: تمهيد:

من الفلاسفة مَنْ يُلقي بأخطائه وأفكاره الفلسفية الفاسدة، (خصوصاً عن المرأة) على كاهل الطبيعة، فيذهب إلى أنها هي التي فرضت على المرأة هذا الوضع المزري فجعلتها خادمة للرجل يأمرها وعليها السمع والطاعة فهذا هو قدرها ودورها الطبيعي وليس شيئاً فُرض عليها من أحد أو تطور إليها عن طريق النظم الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية، بل إن السلبية والخضوع والاعتماد على الرجل، والاحتشام والخجل، والتسرع أو العجلة في اتخاذ القرارات، ونقص العقل، وعدم القدرة على التفكير السليم، والحساسية، والجري وراء المشاعر، وعدم القدرة على التفكير المجرد..الخ الخ. هذه كلها خصائص منحتها لها الطبيعة التي لا تخطئ ولا تكذب ولا تفعل شيئاً باطلاً.

ولما كان تمجيد الطبيعة هو الموضوع الأبرز في كل كتابات «روسو» الفلسفية فمن المهم أن ندرك جيداً أن شأنه في ذلك- شأن الرومانسيين جميعاً- يؤله الطبيعة، لكنه يفترق عنهم جميعاً بإضفاء صبغة فلسفية على هذا التأليه، وهو من هذه الزاوية يتابع نظرة أرسطو والتراث

الأبوي البطريركي في الثقافة الغربية عن المرأة [1].

لقد كان أرسطو قديماً، على رأس هؤلاء الفلاسفة الذين مجدّوا الطبيعة، فهي التي نسقت الكون على هذا «النحو البديع» عندما جعلت الموجودات الدنيا في خدمة الموجودات العليا فهي موجودة لصالحها ومن أجلها..الخ وهو صاحب العبارة الشهيرة التي ترددت في الفلسفات اللاحقة من بعده وهي «أن الطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً، ولا شيئاً ناقصاً» [2] أما القول بأن الأفكار الاجتماعية الخاطئة والنظم الفاسدة هى التي فرضت على المرأة هذا الوضع المتردي فهو سفسطة لا معنى لها[3].

لم يذهب أرسطو إلى أن هناك تناسقاً «بديعاً» في الكون فحسب صنعته يد الطبيعة «التى لا تفعل شيئاً باطلاً»، بل نقل هذا التناسق «البديع» إلى عالم البشر، فهناك درجات ومراتب بين البشر يعلو بعضها بعضاً على نحو ما هو قائم بين موجودات الطبيعة تماماً، فالطبيعة تميل إلى إيجاد مثل هذا التمايز بين البشر بأن جعلت بعضهم قليلي الذكاء

---

(1) راجع في ذلك ترجمتنا العربية لكتاب سوزان موللر «النساء في الفكر السياسي الغربي» المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2002 ص121 وما بعدها.

(2) Aristotle: Politics: 1265- A (The Complete Works, Vol.2. P.993).

(3) كانت السوفسطائية – على عكس أفلاطون وأرسطو- ترد الاختلافات والفروق بين الشعوب إلى النظم الثقافية والعادات الاجتماعية وليس إلى الطبيعة كما ذهب عمالقة الفكر اليوناني- راجع «الفيلسوف.. والمرأة» ندوة خاصة أعد لها المؤلف وأدارها ثم نشرتها المجلة العربية للعلوم الإنسانية كلية الآداب في جامعة الكويت عدد شتاء عام 1994.

لكنهم أقوياء البنية، وبعضهم الآخر أكفاء للقيادة وللحياة السياسية بصفة عامة – وعلى ذلك فإن هؤلاء لا بد أن يكونوا أحراراً بالطبع (أى بفعل الطبيعة) في حين يكون السابقون عبيداً بالطبع [1].

هناك إذن هيراركية (أو مراتب تصاعدية) في الكون بين الموجودات، وهناك أيضاً هيراركية أو مراتب تصاعدية بين الشعوب أعني مراتب داخل الجنس البشري نفسه، فمنها ما هو أعلى كالإغريق، ومنها ما هو أدنى كالبرابرة الذين هم غير اليونان بصفة عامة. فإذا كان هناك مَنْ يظن أن الناس سواسية، وأنه يتساوى في ذلك رجل الدولة والملك، ورب المنزل والسيد، والعبد، والمرأة، والرجل..الخ فهم في ذلك واهمون؛ ذلك لأن البشر مختلفون بحكم الطبيعة فقد أقامت الطبيعة تعارضاً في كل مكان بين الأعلى والأدنى، بين النفس والبدن، بين العقل والشهوة؛ بين الإنسان والحيوان، بين الذكر والأنثى، وحيثما وجد هذا الاختلاف بين موجودين كان ذلك لمصلحتها معاً: أن يحكم أحدهما وأن يطيع الآخر[2].

وإذا ما عرفنا أن أرسطو يجعل الهيولي (أو المادة) في مرتبة أدنى من الصورة، فهي إذن في خدمة الصورة حسب قانون الطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً، وإذا كانت المرأة هي الهيولى أو المادة، والرجل هو الصورة- وصلنا في الحال إلى النتيجة التي تقول إن المرأة في درجة أدنى من الرجل. وبالتالي فهي لا تصلح للقيادة أو الإدارة ولا للتخطيط، ولا حتى لإدارة الأسرة- دع عنك أن تشارك في الحياة السياسية وتمسك

(1) راجع ذلك كله كتابنا «أرسطو... والمرأة» العدد الثاني من سلسلة المرأة في الفلسفة» ص36 وما بعدها دار التنوير بيروت 2009.

(2) المرجع السابق نفسه ص37-38 من طبعة دار التنوير ص2009.

بإدارة المجتمع- وفضلاً عن ذلك كله فهي ناقصة «عقل وفكر..» ومعنى ذلك كله أنها لا تصلح لشيء إلا لخدمة الرجل وطاعته..!.

ثانياً: روسو يتابع التراث الأرسطي[1].

قد يبدو هذا العنوان غريباً إذ كيف يمكن أن يتابع روسو فيلسوف الحرية والثورة المعلم الأول لا سيما في رجعيته الشديدة تجاه المرأة؟! كيف يمكن أن يكون روسو «الفيلسوف الثائر»[2] الذي وصف بأنه كان احدى ركائز الثورة الفرنسية. وأنه «احد آباء الحرية والعدالة والمساواة، وأنه قديس بين قديسي العدالة الاجتماعية الصحيحة[3] بأنه كان رجعياً تجاه المرأة؟!.

ألم تكن الحرية هي مشكلته الرئيسية وشغله الشاغل، وهي التي وصفها في افتتاحية كتابه «العقد الاجتماعي» بهذه العبارة الجميلة: «يولد الإنسان حراً لكننا نراه اليوم مكبلاً بالأغلال في كل مكان. فكيف حدث ذلك؟ وما الذي جعله مشروعاً؟»[4] ألم يوصف هذا الكتاب بأنه «انجيل»

(1) راجع ما تقوله سوزان موللر في كتابها السالف الذكر: «القول بأن الطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً ولا تكذب هو خيط يسري في كل كتابات روسو الفلسفية»- «النساء في الفكر السياسي الغربي» ص129.
(2) راجع كتاب الدكتورة سامية عبد الرحمن: «روسو: الفيلسوف الثائر» دار الثقافة بالفجالة- القاهرة 2002.
(3) د. محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته وكتبه» مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة الطبعة الثانية ص6.
(4) Jean. Jacques Rousseau: The Social Contract» English Trans by Maurice Cranston, Penguin Books, 1968, P.49.

=

الثورة الفرنسية، ثورة الحرية والإخاء والمساواة؟! ألم يحمله الثوار في الشوارع ويهتفون به في كل مكان- ألا يكون هذا الفيلسوف إذن، هو المدافع الأول عن الحرية والمساواة والعدالة؟

والجواب على ذلك هو أن جميع هذه الصفات الهامة والخصال الحميدة لا ينكرها أحد لكنها تكون أكثر صدقاً وأشد وضوحاً لو أننا أضفنا إليها عبارة «في ميدان الرجال فحسب» فهو ينادي بالحرية للرجل ويدافع عن المساواة بين رجل ورجل، ويطلب العدالة بين أقرانه من الرجال! أما المرأة فهي خارج الدائرة تماماً: دائرة الحريات والعدالة والمساواة لأن الطبيعة جعلتها هكذا خادمة للرجل ومحظية له فقد خُلقت المرأة لتروق الرجل»[1].

ومن هنا ذهبت «سوزان موللر» بحق إلى أن روسو يمثل نظرة التراث الغربي كله إلى النساء.. فهو يذهب إلى تأييد الأفكار التي أصبحت جزءاً من الثقافة الأبوية البطريركية معلناً انفصال النساء واضطهادهن طوال تاريخ التراث الغربي.. فإذا ما بدأنا من البداية فهو يذهب إلى أن المرأة تتميز بوضع حاد، ووظائف معينة هي طبيعية لبنات جنسها، ومن المهم- طالما أن روسو يدافع عن الطبيعة بهذا الشكل أن نرى كيف اختلف استدلاله فيما هو طبيعي بالنسبة للنساء، وعما هو طبيعي بالنسبة للرجال، لنجد أن روسو كان محافظاً على التراث القديم الطويل الذي يرتد إلى أرسطو – يعّرف طبيعة المرأة على خلاف طبيعة الرجل من منظور وظيفتها أي الغرض الجنسي والإنجاب في الحياة في

=

وفى الترجمة العربية ص35.

(1) روسو: «إميل أو التربية» ترجمة عادل زعيتر ص657.

حين أنه يحدد طبيعة الرجل من حيث قوته اللامحدودة على التفكير العقلي والإبداع وما شابه ذلك [1].

ولذلك فإن ليندا لانج Lynda Lange ترى أن كتابات «روسو» السياسة تنطوي على مفارقة واضحة فهي في مجموعها دفاع عن المساواة وتبرير بين الرجال. ولكنها في الوقت نفسه تنطوي على دفاع وتبرير لعدم المساواة بين الرجال والنساء، ومعالجة تتصل بطبائعهن الخاصة على نحو ما يراها هو [2] ومن ثم فهو يقول للمرأة «الأمر الجوهري أن تكوني كما أرادت لك الطبيعة أن تكوني.. ذلك لأن المرأة تميل دائماً أكثر مما ينبغي أن تكون كما يريد لها الرجال أن تكون..»[3].

فالنظم الاجتماعية والعادات، والتقاليد والأوضاع السياسية..الخ هي التي خلقت التفاوت بين الرجال- ومن أهم الأفكار التي فرقت بين الناس فكرة التملك أو الملكية» مع أن «الثمرات للجميع، والأرض ليست ملكاً لأحد..» [4] والناس هنا تعني الرجال فحسب- فأول مَنْ

---

(1) سوزان موللر أوكين «النساء في الفكر السياسي الغربي» الفصل الخامس «روسو والتراث الأبوي البطريركي الحديث» ص121 من طبعة دار التنوير بيروت 2009.

(2) The Sexism of Social and Political Theory: Won en and Reproduction From Plato To Nietzshe» edited by Lorenne G.Clark and Lynde lange University of Torento oress, 1979 P.41.

(3) روسو: «إميل أو التربية» ص668.

(4) روسو: «أصل التفاوت بين الناس» ترجمة عادل زعيتر دار المعارف بمصر عام 1954 ص84.

سور قطعة من الأرض وقال «هي لي» ووجد من البسطاء مَنْ يصدقه دقَّ أسس الفُرقة بين الناس [1] (أعني بين الرجال) – أما الاختلاف والتفاوت بين الرجال والنساء (أو بين الرجل والمرأة) فالطبيعة هي التي وضعت خصائصه وحددت ملامحه، ولهذا ينبغي الاستسلام له وتنفيذه بكل دقة. فإذا كان لا بد لنا أن نقاوم التفاوت بين الرجال ونثور عليه، ونعمل على تغيير هذه الأنظمة الاجتماعية الظالمة التي نشرت البؤس بين بعض طبقات المجتمع، فإننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالنسبة للنساء بل على العكس لا بد من الخضوع لفعل: «الطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً!».

فإذا كانت القيمتان اللتان تنتشران أكثر من غيرهما، وتتعايشان أكثر من غيرهما في فلسفة «روسو» الاجتماعية والسياسية هما: الحرية والمساواة، وإذا كانت الطبيعة هي التي جعلت هاتين القيمتين جزءاً من جوهر الإنسان، فإن علينا أن ننتبه جيداً إلى أن الإنسان هنا يعني الرجل وحده دون المرأة، فروسو ينكر صراحة أنهما ينسجمان مع طبيعة المرأة.

ولهذا فإننا نراه يقدم هذه النصيحة الغالية للأم:

«أيتها الأم العاقلة: لا تجعلي من ابنتك رجلاً صالحاً فذلك ينطوي على تكذيب للطبيعة، بل اصنعي منها امرأة صالحة، وثقي بأن هذا الأفضل لنا ولها.»[2] فالجنسان الرجل والمرأة، مختلفان- بحكم الطبيعة- أتَم ما يكون الاختلاف، ولا يوجد أي تماثل بينهما [3].

---

(1) المرجع السابق ص85.

(2) إميل أو التربية ترجمة عادل زعيتر دار المعارف بمصر عام 1954 ص668.

Emile, Eng Trams. P.394. (3)

ومن هنا فقد كتب يقول «لا ينبغي أن يكون الرجل الكامل والمرأة الكاملة متشابهان من حيث الروح إلا بمقدار ما يكونا متشابهين من حيث الوجه، ولا يسمح الكمال بأكثر أو أقل من ذلك...»[1] فلا ينبغي للنساء أن يكن قويات كالرجال، بل من أجل الرجال، وذلك لكي يكون مَنْ يضعنه من الرجال أقوياء أيضاً.. لقد كانت بنات اسبرطة يتدربن كالفتيان على الألعاب العسكرية لا ليذهبن إلى الحرب، بل ليحملن ذات يوم أولاداً قادرين على احتمال ويلات الحرب ومشاقها[2].

إننا كثيراً ما ننخدع بكلمات «روسو» المعسولة فنظن أنه يتحدث عن المساواة بصفة عامة أو عن العدالة بين البشر دون أن يقصرها على نوع من البشر دون الآخر، لكنا إذا ما سرنا معه فسوف نتبين الحقيقة، وهي أنه يتحدث عن نوع واحد هو الرجال أما النساء فهن جنس آخر» أو جنس ثان كما ستقول «سيمون دي بوفوار» في القرن العشرين!

يفتتح «روسو» كتابه «أصل التفاوت بين البشر» بهذه الكلمات الجميلة.

«إنني أتحدث هنا عن الإنسان، والمسألة التي أبحثها تنبئني أنني أتحدث إلى البشر، فهذه المسائل لم يثرها أولئك الذين يعترفون بالحقيقة.. ومن ثم فإني أدافع عن قضية الإنسانية» فهو إذن يتحدث عن الإنسان بصفة عامة وإلى البشر جميعاً، وهذا شيء رائع... فماذا وجد؟!.

«أجد أن هناك نوعين من التفاوت بين نوعين من الجنس البشرى:

(1) «إميل أو التربية» الترجمة العربية ص673 والإنجليزية Emile P.829

(2) المرجع نفسه 673.

النوع الأول أسميه التفاوت الطبيعي أو الفيزيقي لأن الطبيعة هي التي صنعته وهو عبارة عن اختلاف في السن أو العمر، وفي الصحة، وقوة الجسم، وخصائص الذهن أو الروح .الخ.

أما النوع الثاني فهو ما يمكن أن أدعوه التفاوت الأخلاقي أو السياسي، وهو يقوم على العرف أو العادات والتقاليد، ويكتسب السلطة على الأقل برضا الناس وإذعانهم ... وهذا التفاوت الأخير الذي يتمتع به بعض الناس دون البعض الآخر: فيكونون أكثر ثراء، واحتراماً، ونفوذاً ويجعلون الآخرين يطيعونهم.

وليس في استطاعة المرء أن يتساءل عن مصدر التفاوت الطبيعي لأن الإجابة تعلنها تعريف الكلمات ذاتها. كما أن المرء لا يستطيع أن يبحث عن وجود ارتباط جوهري بين هذين النوعين من التفاوت، لأن ذلك لا يعني سوى أنه يسأل بطريقة أخرى عما إذا كان أولئك الذين يأمرون هم بالضرورة أعلى من أولئك الذين يطيعونهم؛ وعما إذا كانت القوة البدنية أو القدرة العقلية إنما توجد على الدوام في الأفراد من أصحاب النفوذ والثروة بنسبة قوتهم أو ثرائهم وهو سؤال جيد ربما كان من الخير أثارته ودحضه بين العبيد وعلى مسمع من ساداتهم لكنه لا يتناسب أبداً مع العقلاء الأحرار من البشر الذين يبحثون عن الحقيقة [1].

وما يهم «روسو» هو التفاوت الثاني بين البشر أو بين الرجال وهو الذي صنعته العادات والتقاليد والعرف والنظم الاجتماعية التي جعلت بعض الناس أمراء أو وزراء وجعلت بعضهم الآخر خفراء وفقراء..الخ الفريق الأول يأمر والثاني يطيع مع أن الناس خُلقوا أحراراً وسواسية

---

(1) «أصل التفاوت بين البشر» ترجمة عادل زعتير ص37-38.

وهذا هو الجانب الثوري عند «روسو» والذي ألهب الثورة الفرنسية ونحن لا نشك أبداً في أهميته لكن ما يهمنا الآن هو إغفاله التام للتفاوت بين الرجل والمرأة بل اعتباره هذا التفاوت أمراً طبيعياً لا حيلة لنا فيه علينا أن نتقبله كما هو، وأن نربي الفتاة على هذا الأساس: هي أضعف من الرجل قوة بدنية، وقدرة عقلية، وأشد حساسية وأكثر انفعالاً، مكانها المنزل، والعناية برجلها أولاً وصغارها ثانياً لا تشترك في الحياة السياسية ولا تلعب دوراً في الحياة الثقافية، وإنما علينا أن نعدها كما أرادت الطبيعة، والطبيعة لا تكذب مطلقاً بل كل ما تأتي به الطبيعة يكون صادقاً..» [1].

ثالثاً: تصوران للمواطن:

وفضلاً عن ذلك فإننا نجد أنفسنا تماماً مع مارجريت كانوفان Margaret Canovan في بحثها الممتع الذي ذهبت فيه إلى أنه يوجد عند «روسو» تصوران للمواطن وليس تصوراً واحداً: «سوف أزعم أن روسو لم يقدم تصوراً واحداً للمواطنة، بل تصورين مختلفين سوف أطلق عليهما على التوالي: التصور القانوني، والتصور الأسبرطي[2].

(أ)- التصور القانوني للمواطن.

وهذا أكثر التصورات شيوعاً في أفكار روسو وهو الذي أثَّر في

---

(1) روسو «أصل التفاوت بين الناس» ص40.

(2) Rousseau's Two Concepts of Citizenship by Margaret Canovan in women in western political philosophy, edited by Ellen Kennedy and Susan Mendus, wheatshaf Books 1987.

فلاسفة السياسة منذ «كانط» حتى عصرنا الحاضر، وهو أيضاً التصور الذي يسيطر على الجوانب الشهيرة في كتابه «العقد الاجتماعي» وأعني بها الكتاب الأول والثاني، ولهذا فسوف نكتفي بوصف موجز له. وهذا التصور مدين بدين عميق للتراث القانوني للفكر السياسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، الذي يقوم على النموذج المألوف للعقد الاجتماعي بين الأفراد في حالة للطبيعة مفترضة والأفراد المعنيين هم عينات مجردة من البشر يذهب روسو إلى أنهم أحرار ومتساوين بالطبيعة وبلا إرغام يجعلهم يطيعون بلا اتفاق فهم مستقلون أخلاقياً، كما يقول روسو، بل إن حريتهم تعتمد على طاعتهم للقوانين التي يضعها كل منهم لنفسه، وتجسيد هذه القوانين في جمهورية شرعية ينطوي، من ثم، على مشكلة يطرحها روسو بدقة شديدة وهي على النحو التالي:

«كيف يمكن لنا أن ننشئ شكلاً من أشكال الاجتماع يدافع عن شخصية كل مواطن وممتلكاته عن طريق قوة الكل مجتمعة وفي ظله يشعر الفرد أنه يتحد فيه من الكل، فإنه لا يطيع شخصاً آخر سوى نفسه، ويبقى حراً كما كان من قبل»[1].

ولقد حل «روسو» المشكلة بطريقة أصلية زاعماً أن هؤلاء الأفراد الأحرار يمكن أن يتحدوا معاً عن طريق عقد اجتماعي ليشكلوا هيئة للسيادة تحكم نفسها عن طريق إرادتها العامة، وقمة نظريته التشريعية هي الرؤية النبيلة للمواطنين المسؤولين المستقلين ذاتياً الذين يكتشفون الإرادة العامة في أنفسهم، ويرفعونها فوق إرادتهم الفردية لكي ينجزوا الانسجام والعدل العام.

J.J. Rousseau: Social Contract, Penguin Books. P.60. (1)

هذا التصور للمواطن- مثل تصور المشَّرعين قبل روسو، وكانط من بعده- هو تصور عقلي مجرد عام، لاسيما تصور روسو للحرية خلال حكم المرء لنفسه يقوم على تفرقة مجردة ومشروعة بين أدوار السيد والرعايا، فهو يفرق بين الفرد من حيث هو مواطن يناط به تحمل مسؤولية عامة ونفس هذا الفرد كشخص خاص. عندما يلتقى المواطن في اجتماع عام يترك حياته الخاصة خلفه أو يتحرك في وسط عام لا يهتم إلا بالمسائل العامة فقط. وبالمثل فإن الإرادة العامة للمواطن تتميز إرادته الخاصة ولا يهتم إلا بمصالحة الجزئية الخاصة، وهي لا يمكن أن تعَبر عن نفسها إلا في قوانين صيغت في ألفاظ عامة، وقابلة للتطبيق على المواطنين بما هم كذلك. وهناك فكرة مجردة أبعد هي أنه على الرغم من أن المواطنين هم مختلفون وغير متساويين كأشخاص فردية، فإن المجال العام يضفي عليهم مساواة صناعية كمواطنين ويلغي خصائصهم الفردية [(1)].

وعلى الرغم من أن روسو كتب «العقد الاجتماعي» وفي ذهنه بوضوح «دولة المدينة الصغيرة» فإن هذا الجانب القانونى المجرد من آرائه عن المواطن قد صيغ في ألفاظ مشروعة.. يمكن تعميمها بسهولة وفوراً، وقد فسرت بالطبع باتساع أكثر وأكثر عن طريق المفكريين السياسيين التاليين، وعلى الرغم من أنه تصور أصيل لروسو، فإنه يقف في علاقة صعبة مع نسخة أخرى ومختلفة أتمَّ الاختلاف عن المواطن.

(ب) – **المواطن الاسبرطي.**

توضح المسودة الأولى لروسو عن «العقد الاجتماعي» أن الطريقة

Margarte Canovan: Ibid. P.81. (1)

الكلية المجردة في التفكير عن السياسة التي ورثها عن المشّرعين من قبله والتي اصطبغت بتصوره الخاص عن المواطنة هي في الواقع لا تكون ممكنة إلا في ظروف خاصة، وداخل مساحات محدودة.

وفي تقابل حاد مع الصورة التقليدية للإنسان الطبيعي الذي استمع إلى الأوامر الكلية للقانون الطبيعي، ذهب إلى أن الولاءات الشديدة للمجتمعات الصغيرة هي وحدها التي جعلت معنى العدالة ممكناً، وأن التصورات الكلية هي تعميمات للمبادئ الأخلاقية والسياسة التي صورتها التنشئة الاجتماعية ذات النطاق الضيق: «إننا نتصور المجتمع الكلي فقط كنتيجة لمجتمعاتنا الجزئية، أن قيام جمهوريات صغيرة يجعلنا نحلم بجمهورية ضخمة، إننا نبدأ فقط في أن نصبح بشراً، إنْ صحَّ التعبير، بعد أن كنا نحن مواطنين».

ومن ثم فإن مشكلة إقامة العدالة السياسية ليست ببساطة مشكلة عقلية تكشف عن الأفراد من أصحاب الشخصية المستقلة الذين يمكن التغلب عليهم بواسطة إرادة عقلية عامة؛ بل لها جانب آخر مطلوب: ذلك هو خلق مجتمع يكون فيه المواطنون راغبين في هذه الإرادة العامة مع تفضيلها على اهتماماتهم الشخصية الخاصة ونتيجة لذلك فعندما انتقل «روسو» في كتابه العقد الاجتماعي من تعريف الإرادة العامة موضحاً بطريقة لا لبس فيها الظروف التي يمكن أن توجد فيها، فإن الصورة التي رسمها عن المواطنة تتغير حيث تذوي الصورة القانونية العقلية المجردة إلى الخلف لكي يحل محلها النموذج الاسبرطى الذي لا بد أن يوجد فيه مشرّع للقانون مثل «ليكورجوس.. Lycurgus» الذي وضع قوانين اسبرطة وجعل الاسبرطيين على ما هم عليه.

والمهم أن «روسو» كان على وعي كامل بالإهانة التي لحقت

بالاستقلال الذاتي للفرد، والتي ينطوي عليها هذا التطبيق[1].

رابعاً: الجنس الآخر:

إذا كانت مارجريت كانوفان M. Canovan قد ذهبت إلى أنه يوجد عند روسو تصوران للمواطن وليس تصوراً واحداً فإننا نستطيع أن نضيف أن تصنيف «روسو» للمجتمع ، وحديثه عن تنظيم الشعب..الخ يقصد به «مجتمع الرجال». والشعب الذي يتألف من «مجموعة من الذكور»- أما المرأة فهي الجنس الآخر أو الجنس الثاني إذا جاز لنا أن نستخدم تعبير سيمون دي بوفوار (1908-1986) The Second Sex الذي كانت تعني به «النساء ذلك الجنس الثاني أو الجنس الآخر» المختلف عن جنس الرجال!.

فالملاحظ أن «روسو» لم يذكر قط شيئاً عن المواطنة النسائية ولو حتى ليقوم بدحضها بل أهملها تماماً، وإن كان قد أوضح في مكان آخر أن مكان المرأة هو المنزل لا الحياة العامة. أما إذا تساءلنا لماذا أعتنق هذه النظرية وهو الذي عاش طوال حياته بمساعدة النساء، وربما على حسابهن، فإن جانباً من الجواب يرجع إلى العرف بغير شك؛ إلى حد أننا نستطيع أن نقول إنه- من هذه الزاوية- يشبه غيره من الرجال في موقفه، فضلاً عن أنه يواصل تراث العصور السابقة في تغاضيه عن مطالب المرأة للمشاركة في الحياة السياسية [2].

---

(1) J.J. Rousseau: Social Contract,P.84 Penguin Books.
والترجمة العربية بقلم ذوقان قرقوط دار القلم بيروت ص83.

(2) Ibid, P.85.
وراجع أيضاً الخاتمة: «الطبيعة في مواجهة المجتمع» في نهاية هذا الكتاب.

والواقع أنه كان من الصعب على أي رجل في القرن الثامن عشر أن يأخذ مأخذ الجد فكرة أن هناك مساواة سياسية بين الرجال والنساء تماماً كما كان من الصعب على الثوار الأمريكيين أن يأخذوا مأخذ الجد فكرة أن الحقوق الإنسانية التي يطالبون بها والتي اعتبرها توماس جيفرسون Thoamas Jefferson (1743-1829) السياسي الأمريكي الشهير الذي وضع وثيقة إعلان الاستقلال- «حقائق واضحة بذاتها»- كان من الصعب على هؤلاء الثوار أنفسهم أن يتصوروا أنها يمكن أن تنطبق يوماً ما على عبيدهم من الزنوج [1].

ومن هنا فقد ذهب جون سيتوارت مل (1806-1873) إلى أن قضية تحرير المرأة تشبه تماماً قضية تحرير الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية (من حيث أنها قضية مشاعر) التي وجد المدافعون عنها صعوبة بالغة في إقناع الناس «بالعقل» على تغيير مشاعرهم المتأصلة في أعماق نفوسهم! بل هناك أسباب كثيرة تجعل المشاعر المتصلة بقضيه المرأة أشد غوراً وأعمق جذوراً من كل المشاعر التي تتجمع حول الأنظمة والعادات القديمة وتحميها!»[2].

وتفسير موقف «روسو» برده إلى العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الأوروبى في ذلك الوقت- لن يأخذنا بعيداً، ذلك لأن روسو لم يكن كاتباً تقليدياً، فإذا كان قد أعاد تأكيد – وبقوة- وجهة النظر التقليدية عن مركز النساء في المجتمع ودورهن الذي فرضته

---

(1) Ibid.

(2) راجع كتاب جون ستيوارت مل في هذه السلسلة بعنوان «استعباد النساء» ص11 و ص37-38. (دار التنوير بيروت عام 2009).

الطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً، فمن المؤكد أن ذلك لم يمكن لنقص في خيال روسو، ولا في طاقته الذهنية، ولا في قدرته العقلية في البحث عن تدبير البدائل فقد كان ثورياً وراديكالياً تماماً بالنسبة للعادات والتقاليد المستقرة الراسخة والتي تجعل بعض الناس عبيداً لبعض، وتجعل الإنسان الرجل مكبلاً بالأغلال والقيود في كل مكان على الرغم من أنه ولد حراً، على نحو ما قال في افتتاحية كتابه «العقد الاجتماعي» الذي اعتبر لهذا السبب «إنجيل» الثورة الفرنسية. فلماذا لم يكن ثورياً وراديكالياً كذلك بالنسبة للمرأة؟! بل وأكثر من ذلك أنه لم يمكن يفتقر إلى نماذج للنساء المتحررات،

فبغض النظر عن «تريز Theres» (زوجته الأمّية) كانت معظم النساء في حياته نشطات وشخصيات قوية مسيطرة قادرة تماماً على انتهاز أية فرصة للمشاركة في الحياة العامة ومنهن: مدام دي فارنس Mme de Warens، ومدام دوبان Mme Dupin و مدام دودنتون Mme d'Houdetot وفي الفترة التي كان يعمل فيها عند أسرة «دوبان» كان يتعاون مع مدام دوبان في كتابة مقالات نسائية، ومن المشكوك فيه أنها كانت توافق على كل ما يكتب[1].

أضف إلى هذه الخبرات إعجابه بأفلاطون الذي اقترح أن تكون النساء من بين الملوك والفلاسفة ومن الواضح أنه لا بد أن يكون لديه أسباب قوية أكثر من مجرد العرف والعادات والتقاليد هي التي جعلته يصر على أن يجعل النساء بعيدات عن الحياة العامة تماماً ولا شك أن بعض هذه الأسباب والمبررات سيئة السمعة ومشينة وهي تكمن في

Margaret Canovan: op. Cit. P.85. (1)

حياته الشخصية ذاتها، ويبدو من المحتمل أن «روسو» كان يخشى النساء بعمق، من ناحية لأنه كان يشعر بالعار من دوافع الاستسلام الموجودة عنده نحوهن أو قل لضعفه أمامهن.

ولقد رأى أن ذلك لا يخفف منه وجود الحشمة والأدب، وليس بالضبط مثل الدور المناسب لضعفهن بل أيضاً كعلاج مناسب لقوتهن. ولكي نكون منصفين فإن رغبته في إبقاء النساء في المنزل كانت أيضاً رد فعل لنوع من الحياة العامة موجودة بالفعل في فرنسا أكثر منه ضد المواطنة النسائية فالنساء المتحررات اللاتي التقى بهن لم يتحركن في الحياة العامة، أعني عالم السياسة الحرة، طالما أنه لم يكن هناك مثل هذا العالم.

وبدلاً من ذلك فهن عندما يغادرن بيوتهن للدخول في الحياة العامة فإن وجهتهن وملاذهن هو المجتمع الراقي مجتمع الصالونات.. ومن المعروف تماماً أن «روسو» كان ينفعل بشدة ضد هذه الحياة العامة المليئة بالنفاق والخبث والمداهنة، والمؤامرات، كما أنه مجتمع أصيب بهوس «الموضة»، والاستعراض الشخصي والعلاقات الغرامية، ولهذا رفع من شأن الاحتشام. وبالمثل عندما رأى اقتراح «دالمبير» بناء مسرح في «جينيف» كمسرح للفضيلة العامة للمدينة، كان يخشى أن هذا المسرح من ناحية سوف يجذب النساء خارج بيوتهن إلى مجتمعات على غرار المجتمع الباريسي، وهذه الحياة العامة للمجتمع سوف تمتص- كما أنها سوف تحجب- الحياة السياسة الأصلية في المدينة (وهو يقصد بها حياة الذكور على وجه التحديد)[1].

---

(1) Political and Arts: Letter to M.D'Alembert on The Theatre Eng =

إن الزعم الأساسي عند روسو هو أن الرجال والنساء مختلفون بحكم الطبيعة، وأن كلاً منهما يكمل الآخر في الذهن، وفي الشخصية وكذلك في الجسم؛ كما أنه يؤكد أن لكل جنس طريقاً مستقلاً ومنفصلاً حددته له الطبيعة. وهذه المعتقدات الصارمة نحو النساء هي التي جعلت روسو يستبعد موضوع المواطنة الأنثوية من ميدان بحثه فقد اعتقد أنهن بالطبيعة لا يصلحن إلا لمتعة الرجل والخضوع له، وأن يقمن بدور التابع في أسرة أبوية أو بطريركية (أي يحكمها الرجل).

ولقد كانت آراؤه أكثر صراحة في كتابه «إميل أو التربية» عندما وصف التربية الخاصة بالرجل الطبيعي الحق، ثم واصل حديثه ليصف المرأة الطبيعية الحقيقية التي هي صوفي Sophie عروس إميل المقبلة! ولهذا فهو ينبهنا إلى أن الرجل الكامل والمرأة الكاملة ينبغي أن لا يتشابها لا في الذهن ولا في الوجه[1].

أما الدور الجنسي للمرأة فينبغي أن يكون «ضعيفاً وسلبياً» في مواجهة قوة الرجل، وهذا الاختلاف الجنسي الأساسي يطابق الدور الثانوي أو التابع في الحياة. والنساء يكن بحكم الطبيعة متواضعات وديعات لأن دورهن هو حراسة عذريتهن وشرف أزواجهن ومن الطبيعي أن ينصب اهتمامهن على الملبس والزينة فذلك هو دورهن في إمتاع الرجل. ومن الطبيعي أن يكن خبيثات إذ أنهن لا بد أن يعتمدن على أحابيل الخداع بدلاً من القوة للوصول إلى أغراضهن.

ومن الطبيعي أن تكون المرأة طيعة لينة العريكة فذلك يتناسب مع

=

Trans by A.Bloom, Glenoe Free Press, P,111.

(1) «إميل أو التربية» ص656.

طاعتها لزوجها لقد خلقت المرأة لكي تستسلم للرجل وأن تذعن لمشيئته حتى ولو كان ظالماً وليس في استطاعتك أبداً أن ترد الفتيان إلى نفس الوضع لأن الطبيعة لم تعدهم للاستسلام أو الإذعان».

أما بالنسبة للقدرات العقلية فالنساء على نحو ما جاء في كتابه «إميل أو التربية» أقل من الرجال في قدراتهن العقلية واستدلالاتهن ليست سليمة أو قوية. أن لديهن بالفعل ألسنة معسولة ورؤوساً صالحة للتفصيلات العملية، لكنهن أقل في القدرة على إدراك المبادئ العامة: «المرأة أكثر فطنة، لكن الرجل أكثر عبقرية، المرأة تلاحظ والرجل يستدل».

وباختصار لقد خلقت الطبيعة المرأة وأعدتها لتكون زوجة وأماً. ويذهب «روسو» في مكان آخر إلى أن الأسرة ينبغي أن تكون أبوية: من ناحية لأنها تحتاج إلى سلطة واحدة ولا يمكن لهذه السلطة أن تكون في يد الزوجة بسبب نشاطها في الإنجاب، وأيضاً لأن الرجل لا بد أن يحكم زوجته ويسيطر عليها، حتى يتأكد أن الأولاد الذين أنجبتهم هم من صلبه حقاً وهو كثيراً ما يكرر أنه ينبغي على المرأة أن تبقى في محيط الأسرة متجنبة الملاهي والمجون دع عنك المسائل السياسية هكذا حكمت عليها الطبيعة كما حكمت على المرأة اليونانية القديمة[1] التي كانت إذا ما تزوجت اختفت من الحياة العامة وقبعت في بيتها داخل الجدران الأربعة وكرست نفسها لخدمة زوجها وأسرتها «وتلك هي الحياة التي أمرت بها الطبيعة والعقل لجنس المرأة. ومع ذلك فإن

(1) راجع عن «المرأة في أثينا» كتابنا «أفلاطون... والمرأة» وهو العدد الأول من هذه السلسلة- دار التنوير بيروت عام 2009 ص41 وما بعدها.

«روسو» خلافاً للاغريق يرفع من شأن الحياة المنزلية التي يود أن يضع فيها المرأة. فقد وجه الانتباه إلى النسل واهتم أكثر من أي فيلسوف آخر بوضع المثل الأعلى الحديث للأسرة الذي يقوم على العلاقات الحميمة بين الكبار، بالإضافة إلى تدعيم الانتباه إلى نمو الصغار[1].

وعلينا أن ننتبه جيداً إلى أن سلطة الأزواج على زوجاتهم هو نظام طبيعي، ولا يمكن أبداً مقارنته بمتطلبات المساواة في النظام السياسي ذلك لأن قانون الطبيعة يلزم المرأة أن تطيع الرجل، وأنه لا بد للزوجة أن تحافظ دائماً على شخصيتها تحت قانون زوجها المطلق (إميل) وأية قوة تستخدمها المرأة ببراعة داخل الأسرة لا بد لها من اكتسابها من مناوراتها البارعة مع زوجها لكي تفعل ما تريد، وأن تستغل وضعها كوسيط لمتعته ومسراته..» [2].

وعلى الرغم من أن روسو يصف في كتابه «أصل التفاوت» الحالة الأولى للجنس البشري بأنها ليست حياة منزلية ولا حياة أبوية، وإنما هي «حياة طبيعية» ينعم فيها الجنسان بالتجول في الغابات في حرية وانطلاق، وأن الزوجين يلتقيان أحياناً وعلى سبيل المصادفة، وأن الأطفال يتجهون إلى الغذاء من أمهم إلى أن يستطيعوا إطعام أنفسهم وأن آباءهم لا يعرفون شيئاً عن وجودهم، ولا سلطان لهم عليهم ولا على أمهاتهم - على الرغم من ذلك كله فإننا نجده يقع في تناقض واضح وصريح عندما يقول في مكان إن الأسرة ليست طبيعية، وفي مكان آخر إن الأسرة طبيعية[3].

---

(1) Margarte Canovan: Op. Cit. P.87.

(2) راجع سوزان موللر أوكين «النساء في الفكر السياسي الغربي» ص168.

(3) وهو يفرد حاشية طويلة لدحض حجة جون لوك في أن الأسرة طبيعية =

كما أن تفسير روسو بشأن الطبيعة عند النساء يحتوي على تناقض أساسي أكثر من ذلك؛ فهو عندما يتحدث عن الطبيعة بشأن الرجل يؤكد أن هناك صعوبة في التمييز بين ما هو أصلي وما هو صناعي» ويلوم بعنف أولئك الذين ينظرون إلى البشر على أنهم يظهرون فحسب في المجتمع المعاصر. ويقول إننا لكي نتعرف على الطبيعة البشرية الأصلية، فإننا نحتاج إلى أن ندع جانباً ما طرأ على الحياة الاجتماعية من فساد طوال عدة قرون لكنه عندما يكتب عن النساء، فإنه يواصل ارتكاب نفس الخطأ الذي ذكره، فيشير إلى خصائص النساء على أساس أنه يعرفها وذلك مثل: الثرثرة التافهة، وغرامهن بالثياب الناضرة- ويستخدم هذه الأمور على أنها شاهد على طبيعتهن الأساسية كما فعل في كتاب «إميل أو التربية»! ومن الواضح أنه اتخذ قراره بشأن ما ينبغي أن تكون عليه النساء أو أنه اهتم بذلك أكثر من اهتمامه الذي يكن عليه بالفعل.

وعلى أية حال حتى لو كان تفسيره لطبيعة المرأة يلقى استحساناً أكثر من ذلك، فليس هو- بمقايسة الخاصة- يقدم حجة حاسمة ضد الاعتراف بالمرأة كمواطنة لأن إحدى قضاياه المكررة التي يعيد فيها القول إن المواطنة ليست طبيعية للرجل أيضاً وإنما هي حالة صناعية تماماً مفروضة على الطبيعة وفي تعارض معها. إذا كان من الضروري «تغيير الطبيعة البشرية» حتى نخلف مواطنين فلماذا تشكل الطبيعة الأنثوية عقبة أمامنا؟! وبعد ذلك كله فإن «روسو» يحترم أفلاطون لأنه لم يدع قصور النساء البيولوجي يقف عقبة في سبيل تخطيطه لجمهورية

=

وذلك في كتاب «أصل التفاوت بين الناس» وسوف نعود إلى هذا لموضوع بعد قليل.

مثالية!.

فإذا كانت ملاحظات روسو عن الطبيعة وعن الرجل قد هدمت فكرته عن وضع النساء فكذلك فعلت مناقشاته للقوة والشرعية فحجته الأساسية لخضوع النساء هي أن الرجال جنس أقوى بالطبع، خصوصاً أثناء العملية الجنسية ذاتها، لكنه ذهب مع ذلك في كتابه «العقد الاجتماعي» إلى أن القوة في ذاتها لا تعطي الحق في السيطرة ولا تأتي القوة المشروعة إلا عن طريق الرضا والقبول «وما في شيء مما نقترحه يصبح في حكم القانون دون موافقتكم»[1] ولقد ذهب بطريقة برجماتية أكثر إلى أن القوة نتيجة إلى الفساد وهي وجهة نظر ذات تطبيق واضح في الأسرة الأبوية البطرياركية، وربما يكون بنظرة أكثر تفاؤلاً اعتمد على الميول الطبيعية للآباء لتأكيد أريحيتهم[2].

وهناك فضلاً عن ذلك تنافر عميق بين المثل الأعلى للاستقلال الفردي الذي يوصي للرجال في اللحظات الأقل اسبرطية والاعتماد على الأب، أو الزوج والرأي العام الذي حرص عليه بالنسبة للنساء ولقد أصبح هذا التقابل مأساوياً في تصويره لبطلة «هلويز الجديدة» التي لم تكن تافهة ولا ضعيفة العقل، بل كان ذكاؤها وقدراتها على الاستقلال الأخلاقي تفوق حبيبها بمراحل.

وفي الجانب القانوني لتصور «روسو» للمواطنة أمور عجيبة بشأن وجهة نظره عن النساء لتأكيده على الاستقلال الذاتي ولم يكن الجانب الاسبرطي، أكثر سهولة في الاتفاق مع تفسيره للدور الأنثوي وقل مثل

---

(1) «العقد الاجتماعي» ص81 من الترجمة العربية.

(2) Margarte Canovan: Op. Cit. P.89.

ذلك بالنسبة للأمثلة البطولية للمواطنة القديمة التي كان مغرماً بها كثيراً ويقتبسها كمثال للتضحية بالعواطف المنزلية «الطبيعة» من أجل الصالح. إن بروتس Brutus أمر بتنفيذ حكم الإعدام في أبنائه تنفيذاً للعدالة العامة وليس ذلك شيئاً عند «روسو» إذا ما قورن بالأم الاسبرطية.

يقول روسو: «لقد فقد المواطن الاسبرطي هويته تماماً حتى أنه لم يعد يعاني من أي صراع داخلي، وأصبحت الفضيلة الوطنية تأتيه على نحو طبيعي [1] فالأم الاسبرطية التي كان لها خمسة أبناء في الجيش خرجت تستطلع أنباء المعارك وعندما التقت بأحد العبيد سألته وهي ترتجف عن الأخبار فأجابها «أبناؤك الخمسة قتلوا» لكنها رُدت عليه بعنف «وهل سألتك عن ذلك أيها العبد الحقير..؟ فعاد يقول: «إن كنت تسألين عن الحرب فقد انتصرنا، عندئذ أسرعت الأم إلى المعبد لتقدم الشكر إلى الآلهة[2] وتقول الأم وهي تدفن ولدها: «إنه لمصير عظيم حقاً ألستُ أدفنه لأنه مات من أجل اسبرطة؟»[3] وسوف نعود إلى هذا الموضوع في الفصل الذي نعقده عن التربية.

والواقع أن تلك الأمثلة السيئة التي يسوقها «روسو» لا تعبّر عن «الأم الطبيعية» فنحن لا نجد هنا سوى قسوة بدائية لا يعادلها إلا قسوة الرجل الاسبرطي ووحشيته[4].

---

(1) J.J. Rousseau: Emile P.8 Everyman's library eng, Trans.

(2) Ibid.

(3) J.Donaldson: Women: her Positein In Ancient Greece and Rone N,Y Press, P.31.

(4) راجع في ذلك كله كتابنا «أفلاطون... والمرأة» وهو العدد الأول من هذه =

وأخيراً فإننا نود أن نختم هذا الفصل مع اقتباس ذلك الحوار الرائع الذي أداره «روسو» في كتابة «أصل التفاوت بين الناس» مع الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632-1704) بشأن الأسرة هل هي «طبيعية» أم لا، فقد خصص «روسو» ما يقرب من خمس صفحات في حاشية طويلة من تعليقاته على الكتاب لكي يدحض حجة «لوك» التي تذهب إلى أن الأسرة «طبيعية» مما يدل دلالة قاطعة على تعسفه في تفسير «ما هو طبيعي» وما هو صناعي فلقد ذهب «جون لوك» في كتابه «رسالتان في الحكم المدني» إلى أن الأسرة مؤسسة طبيعية معتمداً على المعاشرة الجنسية التي تؤدي إلى حمل الأنثى، ثم وضعها ثم تغذية أطفالها ومساعدتهم على النمو...الخ.

غير أن «روسو» يقول إن حبي للحقيقة هو الذي يجعلني أعترض على هذه الحجة وأن أسوق بعض الملاحظات عليها إنْ لم يكن للرد عليها فعلى الأقل لإيضاحها..»[1].

الملاحظة الأولى: يذهب روسو إلى أن البراهين التي يقدمها لوك هي كلها براهين أخلاقية، والبراهين الأخلاقية ليس لها قوة كبيرة في ميدان العلم؛ فإذا كان من المفيد للجنس البشري دوام المعاشرة بين الذكر والأنثى لاستمرار النوع، فإن ذلك لا يدل على أن ذلك يتم بفعل

= السلسلة ص169 من طبعة دار التنوير عام 2009.

(1) J.J. Rousseau: A Discoures on Inequality «Penguin Books Trans. By M Cranston, P.163.

وانظر أيضاً الترجمة العربية للأستاذ: عادل زعيتر دار المعارف بمصر عام 1954.

من أفعال الطبيعة، وإلا لأمكن في هذا الحالة أن نقول إن الطبيعة هي التي أقامت المجتمع المدني، وهي التي أنتجت الفنون والتجارة، وكل ما نزعم أنه مفيد للناس!.

الملاحظة الثانية: يقول «روسو» :«إنني لا أعرف أين اكتشف، مستر لوك أن المعاشرة بين الذكر والأنثى وبين الحيوانات المفترسة أكثر دواما عنها بين الحيوانات الصغار وذلك لأننا لا نرى الكلاب، والقطط، والدبب والذئاب تتعرف على إناثها أكثر من الحصان والحمل، وغيرهم من ذوات القوائم الأربعة، وعلى العكس يبدو أنه إذا كانت مساعدة الذكر للأنثى ضرورية للمحافظة على صغارها، فإن ذلك يكون في الأنواع التي لا تعيش إلا على العشب، لأن الأم هنا تحتاج إلى وقت طويل للرعي، وهي مضطرة لإهمال نسلها في هذه الفترات في حين أن أنثى الحيوانات المفترسة تلتهم طعامها في دقيقة واحدة فيكون عندها من الوقت ما ترضع فيه صغارها..»[1].

الملاحظة الثالثة: هناك شك كبير في الواقعة الرئيسية التي جعلها «لوك» أساساً لبرهانه بأسره لأننا إذا ما أردنا أن نعرف أن المرأة في الحالة الخالصة للطبيعة تكون عادة حُبلى من جديد، وتلد طفلاً جديداً قبل أن يستطيع الطفل الأول أن يقوم برعاية نفسه- إن أردنا أن نثبت ذلك كان لا بد من إجراء مجموعة من التجارب التي لم يقم بها لوك نفسه ولم يقم بها أحد غيره!.

ولا شك أن لقاء الذكر والأنثى حتى بالنسبة للموجودات البشرية

---

(1) Ibid. P.161.

وانظر أيضاً الترجمة العربية السالفة الذكر ص173.

يكون عادة لقاءاً عارضاً، أو اندفاعاً للمزاج في حالة الطبيعة الأولى، ولا يمكن- لهذا السبب أن يؤدى إلى نفس النتائج التي تكون لحالة الاستقرار بين الزوج والزوجة في المنزل. أما من حيث الأطفال فهناك من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد على أن قواهم وأعضاءهم تنمو في حالة الاستقرار ووجود أسرة على نحو أبطأ من نموها في حالة الطبيعة الأولى التي نتحدث عنها. فالطفل في حالة الأسرة ينمو ضعيفاً بسبب ما ينقل إليه من ضعف أصلي من بنية الأبوين وما يحاط به من عناية وستر لجميع أعضاء جسمه ولمضايقتها، وصنعه من لبن غير لبن أمه.. وهي كلها أمور تباين الطبيعة وتقدمها فيه عائد الطفل في حالة الطبيعة يقوم بتمرينات بدنية وحركات مستمرة يبدو أن الطبيعة تطالبه بها فيمشي ويقضي حاجته بنفسه قبل الأوان!.

الملاحظة الرابعة: والملاحظة الأخيرة التي يسوقها «روسو» هي أن أكثر ما يثبته «مستر لوك» ربما يكون القول بأن هناك دافعاً عند الرجل لأن يظل مرتبطاً بالمرأة عندما يكون له منها طفل. لكنه لا يثبت مطلقاً أن الرجل لا بد أن يرتبط بها قبل الوضع ولا أثناء أشهر الحمل التسعة، وإذا كانت امرأة معينة تظل محايدة لا تبالي بالرجال طوال أشهر الحمل التسعة، وإذا ما أصبحت غريبة عنه فلم يساعدها بعد الوضع؟! ولم يعينها على تربية طفل لا يعرف أنه والده ولم يرغب في وجوده، ولم يتنبأ به؟

من الواضح أن مستر «لوك» يفترض سلفاً ما هو موضوع البحث لأن المسألة ليست في معرفة لماذا يظل الرجل مرتبطاً بالمرأة بعد الوضع، بل لماذا ينبغي عليه أن يرتبط بها بعد الحمل، إن الرجل بعد أن أشبع شهوته ليس بحاجة على الإطلاق إلى هذه المرأة بالذات ولا المرأة بحاجة لرجل معين، ولا يهتم الرجل أدنى اهتمام بل ربما ليس

لديه أدنى فكرة عن نتائج عمله، فيسير أحدهما في هذا الاتجاه بينما يسير الآخر في اتجاه آخر، وليس هناك ما يدل على أن أحدهما سوف يتذكر الآخر بعد تسعة أشهر، إن المرأة في حالة الطبيعة لا تشعر بهوى نحو الرجل بعد الحمل، بل إنها لم تعد بحاجة إلى الرجل الذي قام بتلقيحها، ولا إلى أي رجل آخر. كما أنه لا يوجد عند الرجل ما يدعوه إلى البحث عن المرأة نفسها التي عاشرها فأي امرأة يمكن أن تشبع رغباته المتجددة وهكذا تسقط الحجة التي استند إليها «لوك» عندما اعتبر الأسرة من صنع الطبيعة»[1].

وهكذا يثبت لنا «روسو» أنه يستخدم مصطلح «الطبيعة» على هواه. وأنه كان يستخدمه دائماً ضد مصلحة المرأة ولمنفعة الرجل؛ فالطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً ولا تكذب» هي التي فعلت ذلك بل لقد بلغ إعجابه بالطبيعة حد التأليه لدرجة أنه خطى خطوة كبرى- كما يذهب بعض الباحثين «فأكد أن الإنسان والقردة العليا (الأورانج أوتان والشمبانزي) من نوع واحد، إذ ليست اللغة طبيعية بالنسبة للإنسان أصلاً» بل هي فن هذبته فصيلة من فصائل ذلك النوع تدريجياً وهكذا راح يفسر اتصال السلسلة عند هذه النقطة على الأقل تفسيراً تناسلياً[2].

فهجومه على جون لوك ودحضه لبراهينه عن الصفة الطبيعية للأسرة لا ينفي إعجابه بالطبيعة وما تفعله بل ربما قلنا عبادته لها.

---

(1) J.J. Rousseau: A Discoures on Inequality «P.164-165.

(2) «سلسلة الوجود الكبرى» تأليف آرثر لفجوى ترجمة الدكتور ماجد فخري- دار الكتاب العربي عام 1964ص 23.

الفصل الثالث

خصائص الأنثى...

«يجب أن تكون صوفيا Sophie
امرأة، كما يجب أن يكون إميل
Emile رجلاً...»

روسو: إميل ص655

الفصل الثالث

خصائص الأنثى

أولاً: تمهيد:

ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا باستمرار صورة «تيريز لافاسير Therese Le Vassaur»[1] الفتاة الريفية البسيطة المطيعة الساذجة التي تعرَّف عليها على مائدة الطعام في الفندق القديم (سان كينتان) الذي كان يقطنه: فتاة بسيطة، شديدة الخجل، لا تستطيع أن تخوض حديثاً في الفلسفة أو السياسة، لكنها تعرف كيف تطهو وتدبر شؤون المنزل، وتحتمل نزوات الزوج، وصراخ الأطفال، وهي المرأة التي يقول عنها «لقد حاولت أن أصلح عقلها، ولكن جهودي كلها ضاعت أدراج الرياح لأن عقلها بقي على ما فطرته الطبيعة فهو لا يقبل الثقافة ولا التثقيف، لم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب أو تميز بين عدد وآخر، رغم ما بذلت من عناء، وهي لا تعرف كيف تعد النقود، ولا تحسب ثمن أي شيء، وإذا تكلمت كانت الكلمة التي تخطر على بالها هي- في أحيان

(1) لاحظ أنه يستشهد «بتريز» وهو يتحدث عن تعلم الفتاة القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ....الخ قارن الترجمة العربية لإميل ص679.

كثيرة – عكس الكلمة التي تقصدها..»[1] تلك هي صورة الفتاة المثالية للزوجة المطيعة، والأنثى التي أوجدتها الطبيعة بخصائص معينة لكي تسعد الرجل – فما هي هذه الخصائص الطبيعية؟!.

ثانياً: دونية المرأة:

خاصية المرأة الأولى هي «الدونية» فهي لا بد أن تُسلّم بأنها أدنى من الرجل- فهذا هو حكم الطبيعة السابق- وهو هنا يكاد يذكرنا بأن المرأة هي «الهيولي أو المادة- والرجل هو الصورة، وقد أوجدت المرأة في مرتبة أدنى، والطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً» قد جعلت الأدنى (المرأة) في خدمة الأعلى (أي الرجل) – هذا هو القانون الساري في الطبيعة وفي المجتمع في وقت واحد- ومن ثم فحياة الأسرة الأبوية البطريركية هي الحياة الأكثر سعادة عند أولئك الذين لم تفسد قلوبهم بعد[2]- ولهذا نراه يقول «لصوفي Sophie» وهو يعدُّها لتكون زوجة لإميل:-

«عندما يصبح إميل زوجك، فإنه سوف يصبح سيدك، تلك هي إرادة الطبيعة، ومن ثم فينبغي عليك طاعته...[3] فمن مقتضيات قانون الطبيعة أن يكون النساء تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن، ومن أجل أولادهن..» وفي بحثه عن «الاقتصاد السياسي» يقدّم روسو ثلاثة أسباب لضرورة سيطرة الذكر على أسرته.

---

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد 39 ص36، وانظر الاعترافات ص751 وما بعدها من الترجمة العربية.

(2) «فالمرأة تظل مساوية للرجل وتسيطر عليه بإطاعتها له» إميل ص685.

(3) «وعلى البنات أن يكن طائعات دائماً..» إميل ص682.

أولاً: لا بد أن تكون هناك سلطة نهائية واحدة تحسم الموضوعات التي تختلف فيها الآراء.

ثانياً: ما دامت النساء يكن أحياناً عاجزات وضعيفات بسبب وظائف الإنجاب، فإن هذه السلطة النهائية لا بد أن تكون في يد الرجل[1].

ثالثاً: المسألة التي يرد إليها الأمر بوضوح هو أنه لا بد أن يكون للرجل سلطة كاملة على زوجته، لأن من الأمور الجوهرية بالنسبة له أن يعرف أن الأطفال الذين تنجبهم زوجته هم أطفاله من صلبه وأن يتأكد من ذلك وهكذا نجد أن مطلب النسب والتأكد من الأبوة هو المبرر الذي لاراد له للخضوع الطبيعي للنساء، ولهذا يقول روسو:-

«إن الواجبات المتبادلة بين الجنسين ليست متساوية، ولا يمكن أن تكون متساوية تماماً، وعندما تشكو المرأة من ظلم اللامساواة التي فرضها عليها الرجل تكون مخطئة فهذه اللامساواة ليست قانوناً بشرياً، أو على الأقل ليست عملاً مبتسراً بل هي حكم العقل: أن يكون أحد الجنسيين الذي عهدت إليه الطبيعة بالمحافظة على الأطفال (وهو المرأة أن تكون مسؤولة عنهم أمام الجنس الآخر، ولا يجوز لها أن تنقض عهدها..)»[2].

---

(1) سوف نرى بعد قليل أن هذا الضعف تعوضه المرأة بما لها من سحر وفتنة تحيل الرجل القوي، بل شمشون الجبار نفسه، إلى إنسان ضعيف معدوم الحيلة.!

(2) J.J. Rousseau: Emile- Eng. Tram by Barbara Foxley, Everyman's Library London 1974, P.324.

=

وهكذا ينبهنا «روسو» إلى أن ظلم المرأة أو عدم مساواتها بالرجل ليس من صنع العادات والتقاليد أو القوانين البشرية وإنما هو من عمل الطبيعة، ومن ثم فإن على المرأة أن تقبل هذه الدونية أمام الرجل- دون شكوى أو تذمر! بل لا بد أن نعرف أن ذلك هو حكم الطبيعة ومن ثم فعليها أن تتقبله برضا وطيبة نفس! «لقد خُلقت المرأة لإمتاع الرجل وللخضوع لسيطرته فينبغي عليها أن تجعل من نفسها مرغوبة في عينيه وأن لا تجعله يغضب إذ تكمن قوتها في سحرها، وعن طريق هذا السحر تجبره أن يكتشف قوته وأن يستخدمها..»[1].

ومن الغريب حقاً أن يربط «روسو» دونية المرأة بدورها في العملية الجنسية، فهو كان يرى في كتابه «أصل التفاوت» أن المعاشرة الجنسية هي نشاط غريزي يحتاج إلى الإشباع وينخرط فيه الجنسان بحرية، لكنه عدّل من هذه النظرة بعد ذلك وذهب إلى أن الهجوم والدفاع وجرأة الرجل وجبن المرأة هذه ليست عادات عرفية كما يعتقد الفلاسفة وإنما هي: خصائص طبيعية للجنسين في العملية، فهي ليست عملية مشاركة متبادلة، وإنما هي عملية يقوم فيها الذكر بدور المهاجم، والأنثى بدور المعتدى عليها، هي عملية يكون فيها الذكر إيجابياً والأنثى سلبيةً فقد خلقتها الطبيعة لتعرض نفسها أمام الذكر لتثيره فيقوم بدور الهجوم والاقتحام وهي بدور الخضوع والاستسلام!» يقول:- «لقد لاحظْت أن التمنع والتصنع والدلال هي أمور شائعة بين جميع الإناث تقريباً، بل إنها لتوجد بين الحيوانات، حتى عندما يكن أكثر استعداداً

=

وانظر أيضاً الترجمة العربية – مع بعض الاختلاف – ص662-663.

(1) Emile: P.322.

لتسليم أنفسهن..»[1].

ثالثاً: الخجل والاحتشام:

ومن العملية الجنسية والاستعداد لها يستنبط «روسو» خصائص أنثوية ضرورية من أهمها الخجل والاحتشام وهما خصائص فطرية عند المرأة لإغراء الرجل من ناحية وإخضاعه لها من ناحية أخرى، فكلما كانت المرأة أكثر حشمة وحياءً وخجلاً دفعت الرجل إلى الهجوم والإقدام! فالحشمة لا تكبت رغبات الرجل بل تثيرها وتحركها وتجعله يقبل على المرأة.

ومن هنا كانت مطالبة أفلاطون للنساء للقيام بتمرينات رياضية في الشارع جنباً إلى جنب مع رجال عاريات تماماً، ودون أن يشعرن بأي حياء أو خجل هو مطلب غير معقول ولا يمكن أن يحدث إلا إذا قمنا بتحويل النساء إلى رجال[2]: «أنا على وعي تام أن أفلاطون في «محاورة الجمهورية» قد حدد نفس التمرينات الرياضية للنساء والرجال معاً- فهو بعد أن تخلّص من الأسرة لم يجد مكاناً للنساء في نظامه السياسي، ومن ثم فقد اضطر إلى أن يحيلهن إلى رجال.. وهكذا فإنه لم يواجه المشكلات الحقيقية..»[3].

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.332.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص658.

(2) راجع ذلك بالتفصيل في كتابنا «أفلاطون... والمرأة» وهو العدد الأول من هذه السلسلة.

(3) J.J. Rousseau: Emile, P. 326.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص665.

وهو ينحو باللائمة على أفلاطون لأنه قام بإلغاء الأسرة ومن ثم لم يجعل المرأة- كما هي أنثى بما لها من خصائص طبيعية أساسية، إن قوة المرأة الحقيقية تظهر إذا ما ظلت انثى لها سحرها ودلالها وخجلها وحياؤها ..الخ فهذه أسلحة رهيبة إذا ما استخدمتها الأنثى خار أمامها أقوى الرجال وركع تحت أقدامها ذليلاً مكسور الخاطر! (ربما كما كان يفعل روسو نفسه تحت أقدام السيدات الصديقات اللاتي كان يبلل صدورهن بدموعه! على نحو ما يروي لنا في اعترافاته)[1].

وهو يروى لنا في كتابه «إميل» أمثلة على هذه المواقف الغريبة فهرقل .. Hercules الذي اغتصب خمسين فتاة من بنات الملك تسبيوس Thespius ملك بؤتيا[2] اضطر لأن يعيش تحت أقدام «أومفالي Omphale» ملكة ليديا Lydia ثلاث سنوات وأنجب منها «أجليوس، ولامون Lamon..»[3].

وكذلك لم يكن شمشمون الجبار Samson بالغ القوة أمام «دليلة Delilah» تلك المرأة الفلسطينية بالغة السحر والدلال التي وقع في غرامها وهي التي أغوته بفتنتها حتى اعترف لها أن سر قوته تكمن في شعره فأخبرت قومها فقصوه وهو نائم فذهبت قوته» فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه، وأوثقوه بسلاسل نحاس» إلى أخر ما يرويه سفر القضاة

---

(1) راجع الفصل الأول حيث تجد كثرة من هذه المواقف.

(2) تقول الأسطورة إن فتاة واحدة منهن رفضت أن يضاجعها وعاشت عذراء بقية حياتها.

(3) قارن د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الثاني ص134-135 وكذلك المجلد الثالث ص314. وأيضاً Emile, P.324 وكذلك الترجمة العربية لكتاب «إميل» ص621-622.

في هذا الصدد..[1] فقوة السحر والدلال والخجل والاحتشام والحياء..الخ هي قوة يستحيل انتزاعها من المرأة لأنها خواص فطرية وطبيعية عندها، ولو كان من الممكن حرمانها منها لحدث ذلك منذ أمد طويل[2].

غير أن هناك من الباحثين مَنْ له تفسير آخر لقوة الرجل وضعف المرأة التي يسوقها «روسو» فالدكتور محمد حسين هيكل في كتابه عن روسو يرى «أن أشد الرجال تعسفاً بالنساء، وأكثرهم حرصاً على إخضاعهن هو أشدهم تعلقاً بهن وأحناهم ضلوعاً عليهن[3].

ولهذا فهو نفسه يقول في الاعترافات ص19-21 «إن عدم توفيقي مع النساء نشأ دائماً من أفراطي في حبهن»؛ هؤلاء هم العشاق للجنس يرون المرأة كالزهرة إنْ عرضتها للهجير ولفح الزمهرير ذبلت وزال جمالها. وهم يرونها كالغزال إن قوي استأسد فزال ما جعل لهم عليه من سلطان. وهم يشعرون توهماً ما لها من ذكاء وحيلة فيخشون أن تنقلب الحيلة سياسة توجه بها المرأة الرجل حيث تشاء وهم يرون لذلك إمكان زوال ملكهم، وهم أشد حرصاً من أن يرضوا زواله»[4] وقد رأى القارئ

---

(1) قارن العهد القديم: سفر القضاء: الإصحاح السادس عشر: 21 وكذلك كتابنا السالف الذكر «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الثالث ص220-221 وأيضاً كتاب روسو إميل J.J. Rousseau Emile, O.324 والترجمة العربية لعادل زعيتر ص662.

(2) J.J. Rousseau: Emile, P. 324. وانظر أيضاً الترجمة العربية ص662.

(3) د. محمد حسين هيكل «روسو: حياته وكتبه» الطبعة الثانية عام 1965 مكتبة النهضة المصرية- ص313.

(4) نفس المرجع في نفس الصفحة.

مبلغ تعلق روسو بالنساء وهيامه بهن وكيف دفعه ذلك إلى أعمال الجنون في شبابه، وفضح مستور حياته في رجولته..»[1].

ولهذا فإننا نراه يقول: «كانت أفكاري في شغل شاغل بالفتيات والنساء، ولكن بطريقتي الخاصة. وقد أبقت هذه الأفكار حواسي في نشاط دائم مؤذ.. ولقد بلغ في التهيج مبلغاً جعلني ألهب رغباتي بشد المناورات إسرافاً بعد أن عجزت عن إشباعها فكنتُ التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزوية، حيث أستطيع أن أتعرى عن بعد أمام أشخاص من الجنس «اللطيف في الوضع الذي اشتهيت أن أكون عليه بقربهن..» (الاعتراف ص117-119).

رابعاً: الرقة والعفة:

من أهم خصائص المرأة الرقة فقد خُلقت لتطيع مخلوقاً ناقصاً هو الرجل، وهو موجود كثير الرذائل مليء دائماً بالأخطاء ولا بد لها أن تتعلم منذ طفولتها أن تعاني الظلم وأن تتحمل أخطاء زوجها بلا شكوى أو تذمر[2].

ومن هنا فإن «روسو» يطالبها أن تكون رقيقة سلسة ليست حادة ولا متعنتة فقدرها أن تنصاع لقيادة الرجل، وسوف تظل طوال حياتها تخضع لرجل أو لأحكام الرجل فلا يُسمح لها أن تكون فوق هذه

---

(1) دكتور محمد حسين هيكل «جان جاك روسو: حياته وكتبه» الطبعة الثانية مكتبة النهضة عام 1965 ص313.

(2) إميل: ترجمة إميل زعيتر دار المعارف بمصر عام 1956 ص710-711 وانظر أيضاً ص745-755.

الأحكام ومن هنا كانت الرقة أول صفات المرأة وأهمها، وليس عليها أن تكون رقيقة وصبورة من أجل الزوج فقط؛ بل من أجل نفسها؛ فلن تؤدي الشراسة إلى شيء ذي بال ولهذا فهو ينصحها بأن معارضة الزوج أو العناد معه، وكذلك المشاكسة لن تجدي نفعاً، ولن تؤدي إلا إلى أمور أشد سوءاً مثل زيادة قسوة الزوج وسوء معاملته لها.

وعلى الرغم من أن «روسو» يرى أن كثيراً من الخصائص والخصال المطلوبة لهذا الدور فطرية في النساء، فقد رأى أن تتجه تربية «صوفي Sophie» بأسرها إلى تنمية ما لديها من خصال فطرية، والعمل على توجيهها الوجهة الصحيحة لضمان نجاح الأسرة. وقبل كل شيء لضمان أنها ستحقق المطلوب منها، وأنها لن تعمل على قلب نظام هيراركية الأسرة الأبوية البطريركية[1].

ولتعلم أن الزوج لن يسمح لها قط أن تقوم بذلك، ولا أن تغلبه بأسلحة العناد والمشاكسة، فالرب لم يصنع الفاتنات ليكن مشاكسات ولم يخلق المرأة ضعيفة لتكون متجبرة، ولم يجعل لها تلك الملامح الرقيقة لكي تشوهها بالغضب ولم ينعم عليها بصوت بالغ العذوبة لتخرج منه الشتائم، والألفاظ الوقحة، أو الكلمات النابية غير اللائقة، والمرأة إذا سخطت نسيت نفسها وقد يكون الحق في جانبها في الأعم الأغلب، لكنها تخطئ كثيراً إذا ما وبخت زوجها أو لامته فهو نفسه مطالب بالمحافظة على جنسه وإذا كان الزوج كثير الرقة فسوف يجعل امرأته قليلة الحياء، في حين أن رقة المرأة هي التي ترده وتجعله يتغلب على حالته إنْ عاجلاً أو أجلاً[2].

---

(1) كان ذلك بعد وفاة «روسو» بقرن كامل (1712-1778).

(2) إميل ص682 من الترجمة العربية

أما الخاصية الأخلاقية الأخرى «وهى العفة» فإن روسو يهتم بها اهتماماً شديداً، ولا ينبغي أن نظن أن «العفة» وغيرها من الفضائل الأخلاقية إنما وضعها المجتمع بما له من عادات وتقاليد بل على العكس: «إن خصائص الأنثى وفضائلها هي أمور أملتها الطبيعة».. فيما يعتقد وهي فكرة بالغة الخطأ، فقد كشف عالم الانثروبولوجيا الأمريكي لويس هنرى مورجان L.H.Morgan (1818-1881) في دراسة أجراها على القبائل البدائية- ومنها الهنود الحمر في ولاية نيويورك – أن كثرة كثيرة من الفضائل الإنسانية ارتبطت بالملكية في المراحل التاريخية المختلفة وهي نظرية استعان بها ماركس وانجلز في دعم مذهبهما عن المادية التاريخية- فعندما كانت الملكية مشاعاً بين أفراد القبيلة كانت المرأة مشاعاً أيضاً، وكانت الحياة الجنسية تبدأ في سن مبكر جداً والقاعدة قبل الزواج هي الشيوعية الجنسية- وكانت الفضائل الأخلاقية مختلفة أتم الاختلاف فلم يكن هناك ما يسمى «بالزنى» أو «العهر» – وأما العفة فهي الأخرى مرحلة جاءت متأخرة في سير التقدم فالذي كانت تخشاه العذراء في البداية لم يكن فقدان بكارتها. بل أن يشيع عنها أنها عقيم، فالمرأة إذا ما حملت قبل زواجها كان ذلك في معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائقاً لها في هذا السبيل..»[1] بل إن القبائل البدائية كانت تنظر إلى بكارة الفتاة نظرة ازدراء لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها. ولهذا كان يحدث أن تسلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق أو تبحث الأمهات بجد عن

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» –المجلد الأول ترجمة د. زكي نجيب محمود دار الجيل عام 1988ص80.

رجال يفضون بكارة بناتهن...[1].

فما الذي غيَّر النظر إلى البكارة بحيث جعلها فضيلة بعد أن كانت رذيلة؟ لا شك أنها الملكية... فالعفة الجنسية بالنسبة إلى البنات قبل الزواج واستمرارها بعده، جاءت امتداداً للشعور بالملك الذي أحسه الرجل إزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها زوج [2].

ولا نريد أن نستطرد طويلاً في هذا الموضوع، لكن كل ما نود أن نبرزه هو أن «**العفة**» أو غيرها من الفضائل الإنسانية ليست بالقطع **فطرية** ولا هي من «**إملاء الطبيعة**» كما يذهب «روسو»! والغريب أنه عندما تعرّف على «تيريزا» اعترفت له قبل أن تهبه نفسها أنها ليست عذراء، لكنه لم يكترث كثيراً بل صاح في غبطة: «البكارة!» جميل أن تكون فتاة العشرين مرغوبة في هذا المكان الجميل: آه: يا تريزتي العزيزة أنا سعيد سعادة لا توصف بأن أحظى بك طيبة وسليمة»[3] ويقول الدكتور هيكل إنه صاح: إنها كذلك (أي بدون بكارة) أحب إليه[4].

---

(1) غريب عن القبيلة لأنه يُحَرِّم على أفرادها اراقة دم أي فرد منها فكان الدين أيضاً عائقاً لإزالة البكارة ومن هنا كانت الفتاة تسأل أي عابر سبيل أن يزيل بكارتها أو تقوم الأم بالبحث عن مثل هذا الشخص – راجع ديورانت في المرجع السابق ص80-81.

(2) «قصة الحضارة» المجلد الأول ص81.

(3) J.J. Rousseau: The Confessions, P.311.
وانظر أيضاً الترجمة العربية المجلد الثاني ص751.

(4) د. محمد حسين هيكل «روسو: حياته وكتبه» مكتبة النهضة المصرية عام 1965 ص70.

ومع ذلك كله فإننا نراه يهتم اهتماماً كبيراً بهذه الخاصية التي أملتها الطبيعة على المرأة على حد زعمه إذ ينبغي أن تكون الأنثى عفيفة وليس ذلك فحسب، بل إن طهارتها أو عفتها ينبغي أن لا تكون موضع شك لا من زوجها ولا من أي إنسان آخر، لأن أقل فضيحة سوف تكون وصمة عار لا تمحى في أخلاقها، ويعتمد شرف الرجل على سلوك زوجته الفاضلة، وعلى ما يقوله الناس عنها، فينبغي أن لا تكون هناك مساومة في هذا الصدد بأية طريقة من الطرق أياً كانت... وهكذا بالنسبة للنساء:-

«لا يكفي للمرأة أن يكون من الممكن تقديرها واحترامها بل لا بد أن يحدث ذلك بحيث تُقّدر وتُحترم بالفعل، ولا يكفي أن تكون جميلة، بل لا بد أن تكون محبوبة، ولا يكفي أن تكون صالحة، بل لا بد أن يعترف الآخرون أنها كذلك، فلا يكمن شرفها في سلوكها وحده بل في سمعتها أيضاً. ومن المستحيل على المرأة الفاضلة حقاً أن تسمح لنفسها أن يظن الناس أنها وضيعة عندما تسلك المرأة سلوكاً سليماً، فإن ذلك هو نصف مهمتها فقط، وما يعتقده الناس في أمورها هو النصف الآخر، وذلك يوازي ما هي عليه بالفعل. وينتج عن ذلك أن المبدأ الذي تقوم عليه تربيتها، لا بد أن يكون- من هذه الزاوية- عكس ما تعارفنا عليه. فالرأي العام هو مقبرة الفضيلة بالنسبة للمرأة في حين أنه في الوقت نفسه عرش المرأة وتاجها»[1].

ويكرر «روسو» في كثير من كتبه أمرين أساسين: **الأول** أنه ينبغي على الزوج مراقبة سلوك زوجته حتى يضمن أن تنجب له أولاداً من

---

(1) «إميل أو التربية» ص680-681.

صلبه. فالعفة والوفاء ...الخ فضائل طبيعية أساسية. **والأمر الثاني** أنه ليس المهم أن يعترف الزوج وأن يتيقين من سلوك الزوجة وأنها وفية وعفيفة وفاضلة بل المهم أيضاً أن يعترف الجيران، والأصدقاء والأقارب والمعارف بهذه الفضائل في زوجته «فالمرأة خاضعة في سلوكها للرأي العام» فيما يقول روسو فسمعة المرأة في المجتمع أساسية أيضاً[1].

وإن كان روسو يقول إنه عَرَف نساءً سلكن سلوكاً معيناً علانية وزعمن أنهن حائزات على جميع الفضائل «ولكني أعرف أيضاً أنهن لن يقنعن بهذا غير الأغبياء..غير أن هؤلاء النسوة زال عنهن أعظم زاجر (عندما زال الحياء) فما الذي يبقى رادعاً لهن؟ وما الشرف الذي يقام له وزن عندهن بعد أن زال عنهن شرفهن الخاص؟ لم يبق عندهن أي سبب لضبط النفس بعد أن خضعن لأهوائهن، فالمرأة إذا ما فقدت حياءها لم يبق عندها شيء تمنعه» فيما يقول المفكر الروماني تاسيتوس Tacitus وهل هناك مؤلف قد عرف قلب الإنسان في الجنسين بعمق أفضل مما عَرَف هذا المؤلف صاحب الكلمات السالفة؟[2].

والواقع أن المرء عندما يقرأ ما يقوله روسو عن ضرورة «العفة وأمانة الزوجة حتى تلد لزوجها أطفالاً من صلبه يرثون ما يملك – يتذكر في الحال المجتمع الأثيني في الزمن القديم الذي وضعت فيه الزوجة في أقصى مكان في الدار وهو المكان المخصص للنساء المسمى «جناح الحريم» وكان «زينوفون» يوصي بوضع متراس على

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P340.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص696.

(2) Ibid P.349.

وانظر أيضاً الترجمة العربية حاشية رقم 1 ص714.

أبواب هذا الجناح- ويقول «أرستوفان» إنهم كانوا يحتفظون بكلاب الصيد لحراسة النساء وإخافة العشاق من الرجال [1] وذلك كله لكي ينجبوا أولاداً من صلب الزوج. ويكاد روسو يفعل الشيء نفسه، فالزوجة أو الأم الأولاد هي «أم الأسرة الحقيقية» على حد تعبيره ليست امرأة دنيا وإنما هى، تعتزل هذه الدنيا وتكون أقرب إلى الراهبة في ديرها، لكنه ينحو باللائمة على الوضع المعكوس في فرنسا حيث تذهب الفتيات- وليس النساء- إلى الأديرة في حين» تتمتع النساء بالدنيا مع أن العكس هو ما كان يحدث عند القدماء، حيث كانت النساء يعشن في الدار منعزلات؛ وكانت هذه العادة أقرب إلى الصواب وأكثر حفظاً للأخلاق [2].

وهكذا يتبين لنا من خاصية «العفة» أن روسو لم يكن يثق بالمرأة على الإطلاق، وقد ألحق بهذا الموضوع أهمية بالغة ليستبعد النساء من أية حقوق، ولينتهك المساواة والحكم الذاتي أو الاستقلال الشخصي. وهناك مؤشرات كثيرة في مؤلفات «روسو»، تؤكد على أنه كان لديه سبب إضافي لرفضه تطبيق مبدأ المساواة على النساء، وكان ذلك السبب هو خوفه الشديد من أن النساء لو لم يكن خاضعات للرجال بطرق معينة فسوف يسيطرن عليهم تماماً، فهو يعتقد أنه طالما أن المرأة لديها القدرة لإثارة رغبات الرجل الجنسية لدرجة أن هذه الرغبات يمكن أن لا تشبع تماماً أبداً، وبما أن الطبيعة جعلتها قوية بما فيه الكفاية لمقاومة خطواته

---

(1) د. إمام عبد الفتاح إمام «أفلاطون... والمرأة» العدد الأول من السلسلة ص22 من طبعة دار التنوير بيروت عام 2009.

(2) J.J. Rousseau: Emile, P35.

وقارن أيضاً الترجمة العربية لكتاب إميل ص717-718.

نحوها عندما يحلو لها أن تفعل ذلك فإنه ينتج من ذلك أنه، فيما يتعلق بحاجات الرجل الجنسية: «فإن الرجل بقانون الطبيعة الذي لا يتغير يعتمد على الإرادة الطيبة للمرأة»[1] وكما يقول في خطابه إلى دالمبير» الحب هو مملكة النساء فهن اللاتي يعطين بالضرورة قانونه»؛ لأنه طبقاً لنظام الطبيعة، فإن المقاومة تنتمي إليهن، وليس في استطاعة الرجال هزيمة هذه المقاومة إلا على حساب حريتهم [2].

خامساً: الدهاء والمناورة:

الأصل في الطبيعة أن تكون المرأة ضعيفة سلبية جبانة، وأن يكون الرجل قوياً جسوراً مقداماً هو الذي يبادر بالهجوم وهي التي تظل في موقعها لتقاوم: «الرجل قوي الساعد، والمرأة ضعيفة، وللقوة بحكم الطبيعة حق لا يمكن إنكاره، واستعمال حق القوة، يتكيف حسب الزمان والمكان بصور مختلفة.

غير أن الطبيعة أيضاً هي التي وهبت الأنثى أسلحة أخرى تستطيع أن تتغلب بواسطتها على قوة الرجل منها «الدهاء» والمناورة». ومن هنا يذهب روسو إلى أن أية أرض تكسبها الأنثى من الرجل داخل الأسرة لا بد أن تكسبها بما لها من «دهاء» وبراعة في المناورة لكن تصل إلى ما تريد أن تصل إليه، وتفعل ما تريد أن تفعله.

---

(1) سوزان موللر أوكين «النساء في الفكر السياسي الغربي»- العدد السابع من هذه السلسلة أصدرته دار التنوير عام 2009 ص138.

(2) د. محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته وكتبه» الطبعة الثانية عام 1965 مكتبة النهضة المصرية- ص31

ولقد سبق أن رأينا كيف اغتصب «هرقل» خمسين فتاة، ثم استطاعت «أومفالي Omphale» أن تحتال عليه بما لديها من «دهاء ومناورة» فتجعله يركع تحت أقدامها ويعمل عندها ثلاث سنوات[1] وأن تنجب منه «أجليوس» و«لامون». وقل مثل ذلك بالنسبة لشمشون الجبار الذي احتالت عليه «دليلة» بدهائها حتى عرفت سر قوته، وسحبت منه هذه القوة- وهكذا ينقلب ضعف المرأة إلى قوة – بواسطة الدهاء والمناورة- في حين تنقلب قوة الرجل إلى ضعف وخور!.

ولا شك أن الأساس الذي يستند إليه هنا «روسو» هو جمال المرأة وسحرها، وغريزة الجنس عند الرجل ولهفته عليها لإشباع هذه الغريزة ولهذا فإن المرأة لم تخلق: لا للعلم، ولا للحكمة، ولا للتفكير، ولا للفن ولا للسياسة- وإنما لإشباع غرائز الرجل، وإمتاعه بحسنها وجمالها- فهذا ما توصى به الطبيعة وما ينبغي أن يُسلِّم به الأب والزوج والمربي؟ ألسنا نرى المرأة تقضي نصف حياتها في الزينة، والعناية بملابسها، وتغيّر مئات المرات من ملابسها، وتدأب في البحث عن صور جديدة من زينتها لكي تجذب الرجل. والعجيب أن ذلك كله مما يسعد الرجل.

ويحتكم «روسو» إلى الرجل نفسه: «إذا أنت دخلت إلى غرفة امرأة فأي الأمرين أفضل عندك وأدعى بك إلى احترامها، أن تراها عاكفة على زينتها، وتجميل نفسها لكي تبدو لك في أحسن حال، أو أن تلقاها تكتب الشعر على منضدة زينتها تحيط بها الكتب من كل نوع؟! أيها

(1) وتصور الأسطورة هذا العملاق وهو يغزل الصوف تحت قدمي «أومفالي»- وكأنه امرأة!!.

العقلاء اجعلوا الفتاة أنثى طوال حياتها».

ومن هنا فقد أخطأ دالمبير في مطالبته بإنشاء المسرح في «جينيف»، وأخطأ أكثر منه مَنْ وضع الحكمة على أفواه النساء الممثلات في هذا المسرح!. لقد خُلقت المرأة لمتعة الرجل لا للعلم ولا للفكر، وخُلق معها الاهتمام بالزينة والملابس، ثم الدهاء والحيلة والمناورة لكي تتغلب على الرجل الذي يريد إشباع غرائزه بشتى السبل حتى ولو أخضع قوته وجبروته لهذه الانثى الفاتنة!.

يقول «روسو» إلى «دالمبير» في خطابه الذي انتقد فيه إقامة مسرح في «جينيف» إن المسرح كثيراً ما يصور المرأة على أنها حكيمة ومدبرة وعالمة تحيط بنواحي المعرفة، وتلك خصال أبعد ما تكون عن خصائص والأنثى، وإنما هي حكمة المؤلف يضعها على أفواه الممثلات من النساء، وفي تصرفاتهن وحركاتهن، فيبعث في نفوس النساء غروراً، وصلفاً، ويضعف الرجل أمامهن- وكيف لا يضعف الرجل وهو يرى على لسان المرأة المتشدقة على المسرح أمثلة بديعة، وحكماً جميلة، وأفكاراً رائعة فيحسبها تملك قوة فوق سلاحها الطبيعي للسيطرة على الرجل ألا وهو سلاح الجنس (الذى تستخدم فيه الدهاء والحيلة والمناورة) – فيزيدها قوة أخرى على قوتها الفطرية الطبيعية.

والواقع أن رجاحة العقل، والذكاء المتقد، والفكر الثاقب التي يعزوها المؤلف للمرأة- هي خصاله هو نفسه، وليس للمرأة فيها نصيب، وينبغي أن نكون على وعي تام بأن تسلط النساء على الرجال ينطوى على خطر كبير على الأخلاق العامة، والملكات والقدرات البشرية!!» لقد كانت ثقة «روسو» في قدرات المرأة وملكاتها ضعيفة تماماً مثلما كانت الحال عند المعلم الأول، بل كان يعتبرها بؤرة الشر والفساد لا

سيما عند ما تجذب الرجل وتهبط به إلى الضعة والاحتقار، ولهذا نراه ينصح في نهاية الخطاب: «أن لا يختلط الرجال بالنساء إلا في مناسبات خاصة»، وسوف نرى فيما بعد (فى الفصل القادم) أن التربية التي يضعها للنساء لا بد أن تكون مختلفة تماماً عن التربية التي توضع للرجل..

سادساً: خاتمة.

نود في نهاية هذا الفصل أن ننبه إلى أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفصل السابق، فكما تقول سوزان موللر إن الحجة الأكثر انتشاراً التي يستخدمها «روسو» لتبرير التفرقة المستمرة بين الجنسيين لاسيما دور الأنثى هي أن هذا الدور طبيعي، فبعيداً عن أن يكون شيئاً قد فُرض عليها أو تطور إليها عن طريق النظم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فإن السلبية، والخضوع، والاعتماد على الآخر، والاحتشام، والخجل ونقص العقل، والحساسية، والدونية، والطاعة، والرقة، والعفة، والدهاء، والمناورة، والميل إلى التجمل والتزين (حتى أنها تقوم بتجميل عروستها وهي طفلة إلى أن تصل إلى السن الذي تترك فيه العروسة وتهتم بتجميل نفسها) هذه كلها خصائص منحتها لها الطبيعة، فالطبيعة تقوم بدور أساسى في تنظيم الأشياء حتى العلاقة بين الرجل والمرأة لكن الإنسان هو الذي يقوم بإفساد كل شيء.

يقول في بداية كتابه «إميل أو التربية»: «كل شيء يخرج حسناً من بين يدى الخالق ثم يطرأ عليه الفساد والنقص بين يدى الإنسان؛ فهو يكره أرضاً على أن تنبت نبات أرض أخرى، وشجرة على أن تحمل ثمار شجرة أخرى، وهو يخلط بين الطقوس والفصول، ويخصى كلبه وحصانه وعبده؛ ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود، وهو يحب التشوه ويهوى البشاعة، ولا يرتضى شيئاً على صورته الطبيعية فهو لا يريد شيئاً

كما صنعته الطبيعة حتى ولا الإنسان نفسه، إذ ينبغي أن يقوم بترويض نفسه وكأنه حصان الملعب، كما ينبغي عليه أن يشذب ذاته كأنه شجرة في حديقته»[1].

فهو يريد إذن أن يرد كل شيء إلى الطبيعة، وأن يعود الإنسان كما كان عبداً للطبيعة أليست الفضائل كلها مغروسة في قلوبنا على نحو طبيعي؟!» والذي لا ريب فيه أن ابن الطبيعة الذي يدعو إليه «روسو» ويضربه مثلاً أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطري الشهواني الأناني الضعيف[2] العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوصي به قلبه من الإلهام الوقتي، هو ذلك المتشرد القديم القليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل منتهى درجاته. والمجتمع الذي أراده أن يكون على النظام الطبيعي إنما هو ذلك المجتمع الذي رآه في قرى سويسرا والتي هي منتهى ما يتصوره خيال رجل من العامة عدو للترف شديد الإعجاب بحياته البسيطة التي يستهين بها الرأي العام المدني ويحكم عليها بالانحطاط...»[3]

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.5.
وانظر أيضاً الترجمة العربية ص27.

(2) منذ مولده وهو يشعر أنه كان بعيداً عن الحياة فقد ماتت أمه بعد ولادته بأسبوع واحد بحمى النفاس ولذلك فقد كتب في اعترافاته يقول: جئت إلى العالم أحمل إمارات قليلة على الحياة «بحيث لم يكن هناك أمل كبير في الإبقاء على..»، راجع الاعترافات وقصة الحضارة مجلد 39 ص14.

(3) دكتور محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته وكتبه» مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الثانية عام 1965 ص81-82.

ولقد قوبلت أفكار «روسو» عن الطبيعة وأهمية العودة إليها، ونبذ المدنية والحضارة - بعاصفة من النقد والسخرية والاستهجان لعل أعنفها ما كتبه فولتير: فعندما أرسل إليه «أصل التفاوت بين الناس» كتب إليه فولتير يقول: لقد تلقيت يا سيدي كتابك الجديد الذي تهاجم فيه المدنية والنوع الإنساني، والآداب - وأشكرك على إرساله.. لم يقم أحد بمثل هذا المحاولة التي تحاول فيها تحويلنا إلى وحوش، وحيوانات»[1].

كما أحزنه أن يواصل «روسو» اتجاهه إلى الوحشية «..إن أحداً لم يبذل قط مثل هذا الجهد لإقناع الناس أن يتحولوا إلى وحوش، وعندما يقرأ المرء كتابك تتملكه الرغبة في أن يمشي على أربع.. ولكن بما أنني فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً، فإني لسوء الطالع أشعر أنه يستحيل علي استئنافها..».

ويستمر فولتير في نفس الرسالة ليناقش روسو في أمر الآداب والعلوم والفنون التي أدت إلى فساد الأخلاق وانهيار المجتمع فيقول إن أدباء إيطاليا من أمثال بترارك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية.. ومسرحية كورني «السيد Le cide» لم تكن هي السبب في حرب القروند...[2] أن الجرائم الكبرى قد اقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة. وما يجعل الدنيا وادياً للدموع هو جشع الناس وغرورهم.. أما الأدب فهو يغذي الروح.. ويقوّمها. إنه يخلق مجدك في

(1) ول ديورانت: «قصة الفلسفة» ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع- مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثالثة 1975 ص308.

(2) أو ثورات القروند وهي سلسلة من الثورات والاضطرابات قامت في فرنسا أثناء الوصاية على لويس الرابع عشر.

نفس الوقت الذي تهاجمه فيه..»[1].

كما سيهاجم هجيل فيما بعد القول بأن الإنسان في حالة الطبيعة كان حراً طليقاً، ويذهب إلى العكس بأن الإنسان كان عبداً للطبيعة من ناحية ولشهواته ونزواته من ناحية أخرى- وربما عدنا إلى هذا الموضوع في مكان آخر لنعرضه بشيء من التفصيل.

---

(1) ول ديورانت: «قصة الحضارة» المجلد 39 ص59.

الفصـل الرابــع

تربية المرأة...

«لقد كانت ميزتي التي فُطرت
عليها، أن أقول للناس حقائق
مفيدة..- وإنْ كانت قاسية- بحماس
وشجاعة..»

الاعترافات الجزء الثالث – ص1269

الفصل الرابع

تربية المرأة..

أولاً: تمهيد:

يبدو أنه قبل ظهور كتاب «روسو» «إميل أو التربية» عام 1762 كانت هناك كثرة من الانتقادات للتربية القديمة، ومجموعة من الأفكار الجديدة عن التربية تختمر في أوروبا بأسرها فيما يقول «شاتوليه.. Chatolais» وساهم فيها مفكرون وفلاسفة وشعراء وأدباء من جميع الأقطار [1] فقد بدأ توماس هوبز (1588-1679) ينتقد المناهج والدروس التي تُقَدم في جامعة أكسفورد «فالدروس كريهة قاحلة والمناقشات عميقة مجدبة والمناهج أرسطية أو إسكولائية من بقايا الفلسفة المدرسية» [2] ويبدو أن هذا الانطباع كان انطباع غيره من

---

(1) بول هازار: «الفكر الأوروبي في القرن الثاني عشر: من منتسكيو إلى ليسنج» الجزء الأول نقله إلى العربية د. محمد غلاب وراجعه إبراهيم بيومي مدكور عام 1957 ص238-239.

(2) د.إمام عبد الفتاح إمام توماس هوبز: فيلسوف العقلانية» الطبعة الثانية دار التنوير بيروت عام 1985 ص52.

المفكرين في عصره، فقد وصف الشاعر جون ملتون (1608-1674) المناهج والمقررات الدراسية التي كانت تقدمها الجامعات الإنجليزية في ذلك الوقت بأنها «وجبة للحمير مؤلفة من أعشاب ونفايات»[1] ثم جاء جون لوك (1632- 1704) فأصدر كتابه «بعض الأفكار حول التربية» لندن عام 1693- ولقد كان تأثير هذا الكتاب قوياً بصفة عامة.

وكان المعاصرون يسجلون عيوب التربية التي تلقوها في الماضي ونوع التربية التي كانوا يريدون أن يقدموها لأبنائهم، فطالب المدرسة الثانوية لم يكن يعرف إلا القليل من المعلومات والمعارف العامة، وأقل القليل من اللغة اللاتينية، وبضع كلمات من اليونانية، وكتاب صغير لتعليم المبادئ الدينية الذي لم يكن يفهمه ولا شيء أكثر من ذلك. وربما عهد إلى الأساتذة تعليم الطالب من علية القوم- الفروسية والرقص والمسابقة والموسيقى، لكنه لا يتجاوز المبادئ الأولى للهندسة ويسيء عملية الطرح في الحساب[2].

ومن هنا كان إصلاح التربية والتعليم موضوعاً مطروحاً - فجاء كتاب روسو «إميل أو التربية» رداً على كتاب جون لوك «بعض الأفكار حول التربية»- فضلاً عن أنه كان في الأصل استجابة وتلبية لرغبة أم تريد أن تعرف شيئاً عن تربية الطفل وهي ابنة مدام دوبن Mme Dupin إحدى صديقات «روسو على نحو ما جاء في كتاب» هلويزة الجديد «بسبب غرامه بالنساء».

---

(1) «توماس هوبز فيلسوف العقلانية» ص52.
(2) بول هازار: الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من مونتسكيو إلى لسنج «الجزء الأول ص239.

ثانياً: كتاب «روسو»:

يبدأ روسو كتابه بوصف الدور الأساسي الذي تقوم به التربية؛ فيقول إن الإنسان يولد ضعيفاً يفتقر إلى القوة فلا حول له، كما أنه يحتاج إلى العون والمساعدة، فضلاً عن أنه أحمق يحتاج إلى العقل.

غير أننا نقوم باستكمال ما ينقصنا عن طريق التربية، ونحن نحصل عليه من ثلاثة مصادر: من الطبيعة، ومن الناس، أو من الأشياء: فنمو أعضائنا وملكاتنا، إنما يأتى عن طريق النمو الباطني- وتلك هي تربية الطبيعة. وما نتعلمه بشأن استخدام هذا المكان والأعضاء إنما نتعلمه عن طريق تربية الناس أما ما نكتسبه عن طريق تجاربنا الخاصة فإنما يأتي من البيئة المحيطة بنا وتلك هي التربية عن طريق الأشياء.

ومن هذه الطرق الثلاث المختلفة للتربية نجد أن التربية عن طريق الطبيعة لا تتوقف علينا، في حين أن التربية عن طريق الأشياء فهي تتوقف علينا جزئياً، أما تربية الناس فهي وحدها التي نهيمن عليها حقاً.

ولقد كان من المتوقع أن تتجه عناية «روسو» فيلسوف المساواة والعدالة، ونصير الضعفاء والفقراء إلى تربية سواد الشعب الذي كان مهملا في فرنسا في ذلك الوقت وكان من المتوقع أن يتجه نحو وسائل التربية المتاحة لجميع الأطفال لكننا للأسف الشديد نرى كتاب التربية لروسو يخلو من ذلك كله بل نراه يقرر أن الفقراء والضعفاء في غير حاجة إلى تربية لأن مركزهم في الحياة يكرههم على احتمال العيش الذي هم فيه- وذلك يتناقض تناقضاً صارخاً مع حياة «روسو» المتشرد ابن الشعب الذي أصبح أرستقراطياً أكثر من الأرستقراطيين من ناحية- كما أنه يتناقض من ناحية أخرى مع ما جاء على لسانه في رسالته

«تأملات حول حكومة بولندا» الذي طالب فيها الحكومة بالإشراف على التعليم الموحد للفقراء والأغنياء معاً- وهو موضوع هام سوف نعود إليه في شيء من التفصيل في الفصل القادم عندما نتحدث عن مفارقات وتناقضات روسو التي لا آخر لها!.

وإنْ كان بعض الشراح يرى أن سبب هذا التناقض ما ذكره «روسو» في الاعترافات من أنه كتب «إميل» استجابة لطلب أم فاضلة- فلعل ذلك يفسر هذا التناقض المعيب بين مركزه كمصلح ديمقراطي وما عرضه في كتابه- فهذه الأم الفاضلة هي واحدة من النبيلات الجميلات ممن كان يعيش في كنفهن ويخطب ودّهن، ويطلب رضاهن!!. وربما خشي إنْ هو كتب عن تربية الفقراء وتعليم سواد الشعب أن لا يهتم به الأشراف والأغنياء الذين يتقرب منهم ويتزلق إليهم، وأنْ لا تعيره التفاتاً جميلات النبلاء، ولا اهتم عظيم من الأشراف بقراءته!- وهي كلها مبررات تسقط دوره كمصلح اجتماعي وفيلسوف ثائر كُرمته الثورة الفرنسية واحتفت به جماهير الشعب البائسة التي كانت تسير حافية في شوارع باريس وهي تحمل «العقد الاجتماعي».

ولكن من الشراح مَنْ يرى تفسيراً آخر ربما كان أقرب إلى الإنصاف وهو أن روسو في بحثه «تأملات حول حكومة بولندا» الذي كان يرى فيه وجوب تربية الأطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وأبناء سواد الشعب- ويرى أن لا يبقى المربي مع تلاميذه زمناً طويلاً – وأن تتولى الحكومة أمور التربية والتعليم..الخ. أن «روسو» في بحثه عن «الاقتصاد السياسي» و«تأملات حول حكومة بولندا» كان يتحدث عن التربية والتعليم بطريقة عارضة، ومن ثم فلم يكن يقف وقفة خاصة تفصيلية عند موضوع التربية – ولهذا لم يضع في ذهنه أبداً ما

يمكن أن يحدثه كلامه في هذا الموضوع من أثر في الطبقات العليا من المجتمع الفرنسي، ولهذا فقد كان هنا أقرب إلى الفكر الحقيقي لروسو، وأبعد ما يكون عن التكلف أو النظر إلى ما يحدثه قوله من نتائج، أو أن الحديث موجه إلى «حكومة بولندا» وليس إلى سلطات المجتمع الفرنسي!!.

ومهما يكن من شيء فما أكثر ما نجده من مفارقات وتناقضات في كتابات «روسو» في مجال الحياة نفسها وفي مجال التربية، ومجال الفكر.. مما يجعلنا نفرد فصلاً قائماً بذاته لهذه المفارقات هو الفصل القادم [1].

ثالثاً: تربية إميل Emile

يختار «روسو» تلميذه الذي سيجرى عليه تجربته التربوية اختياراً خاصاً فإميل Emile، ينحدر من أسرة ميسورة الحال[2] قادرة على استئجار مدرس خصوصي، وهنا تبدأ تجربة تربوية غير عادية، فمنذ البداية ينعزل «إميل» عن العالم فلا يسمح له إلا باللعب في الهواء الطلق حيث ينمو بطريقة طبيعية بعيداً عن القيود التي تضعها فيه الأسرة[3] إذا

---

(1) قارن الدكتور محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته وكتبه» ص131.

(2) ديف روبنسون وأوسكارزاريت: «روسو» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام المشروع القومي للترجمة العدد 696 الطبعة الأولى عام 2005 (المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة) ص78.

(3) لاحظ أن «روسو» يقول عكس ما قاله في بحثه عن الحكومة البولندية من «أنه لا يجوز أن يبقى المربي مع تلاميذه زمناً طويلاً» وما أكثر مفارقاته.

لا يكاد الطفل يخرج من بطن أمه، ويتمتع بحرية الحركة، ويمد أعضاءه حتى يعطى قيوداً جديدة فهو يوضع في قماط، ويضجع مثبت الرأس ممدود الساقين مدلى الذراعين بجانب الجسم، وهو يحاط بالبياضات والعصائب من كل نوع إحاطة تامة لا تسمح له بتغير وضعه- مع أنه يكون سعيداً إذا لم يشد شداً يمنعه من التنفس [1] ويقول «روسو» إننا لا نهتم بأن نضع صغار الكلاب والقطط في مثل هذا القماط فهل أصابها مكروه نتيجة هذا الإهمال؟! أن القماط والأربطة تعوق جريان الدم وتضعف الطفل وتمنعه من النمو»[2].

و«روسو» لا يحب الطب أو الأطباء. فهو يزعم أن الطب مظهر من مظاهر المدنية كالعلوم والفنون والفلسفة، وأنه لذلك قد أفسد على الناس تصورهم للحياة: «إذا أردت رجالاً شجعاناً حقاً فأبحث عنهم في الأماكن التي لا يوجد فيها أطباء مطلقاً، وحيث يجهل الناس آثار الأمراض فإنهم لا يفكرون في الموت على الإطلاق فمن الطبيعي أن يحتمل الإنسان الألم، وإن يموت مطمئناً. إلا أن الأطباء بأوامرهم، والفلاسفة بقواعدهم، والقساوسة بدعواتهم- هم الذين يستذلون قلبه ويفسدون عليه مماته.

«فليكن تلميذي إذن في غنى عن هؤلاء الناس وإلا رفضته، فأنا لا

---

(1) يقول «روسو» يولد الإنسان المتحضر عبداً ويموت عبداً فهو يحيا ويموت في العبودية- فهو يوم يولد يخاط في قماط، ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش. وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا الاجتماعية» إميل ص38 من الترجمة العربية وص10 من الترجمة الإنجليزية.

(2) J.J. Rousseau: Emile, P.12.
انظر الترجمة العربية ص41.

أريد أن يفسد عليَّ أحد عملي مطلقاً، وإنما أريد أن أربي تلميذي وحدي ولا يكون لأحد أي شأن في أمره. ولقد نصح جون لوك J.Locke – الحكيم- بعد أن أمضى شطراً من عمره في دراسة الطب أن لا يعطي للطفل أدوية سواء على سبيل الوقاية والحيطة، ولا على سبيل ما يطرأ على صحته من انحراف خفيف».

وسوف يستغني الأطفال عن كل دواء لو اعتنت بهم أمهاتهم العناية الواجبة، وإذا لم يتركوا للخدم أو المراضع يفسدون ملكاتهم، وصحتهم واستعداداتهم الطبيعية وليس دور الأب في التربية أقل من واجب الأم فهما شريكان في احتمال التبعة، كما أنهما شريكان في احتمال النتيجة، ولقد عبرَّ «روسو» عن دور الأب بكثير من الألم والمرارة، دفع بعض النقاد إلى القول بأنه يتذكر جريمته القديمة حين ألقى بأطفاله الخمسة تباعاً في ملجأ اللقطاء- يقول: «كل أب يطعم أطفاله لا يقوم إلا بثلث واجبه، لكنه لم يستطيع الوفاء بواجب الأبوة، فحرام عليه أن يكون أباً.. ولن يُعفى الأب من إطعام أطفاله وتربيتهم أن يكون فقيراً أو يعوقه عمل أو جاه.. وكل مَنْ يهمل واجبات الأبوة سوف يندم على ذلك أشد الندم» [1].

ولا نريد أن نستطرد طويلاً في بيان تربية «إميل»- فذلك قد يستغرق فصولاً طويلة ويشكل كتاباً مستقلاً! لكنا نريد في النهاية أن نصل إلى تربية «صوفي Sophie» وهي الفتاة التي يُعَدها للزواج من إميل فهي زوجة المستقبل التي تمثل المرأة بصفة عامة، وتربيتها هي في حد ذاتها تربية للمرأة- لكن لا نرى اختلافاً كثيراً بينهما في الطفولة المبكرة،

(1) «إميل» الترجمة العربية ص51- والإنجليزية ص17.

باستثناء اللعب والألعاب. ومن هنا فإن «روسو» يتحدث عنهما بصيغة المفرد أعني أنه يتحدث عن «الطفل» بصفة عامة دون أن ينبهما إلى وجود اختلافات كما أننا لا نعرف هل هذا الطفل هو فتى أو فتاة- ولهذا فيكفي أن نجمل بعض المبادئ العامة:-

أ- ينبغي معاملة الأطفال بوصفهم أطفالاً وإقناعهم بذلك وأنهم لهذا السبب في حاجة ماسة لكل منْ حولهم حتى من الخدم.

ب-لا بد أن يترك الأطفال أحراراً في الاتصال بالأشياء المحيطة بهم، على أن يستفسروا لأنفسهم، وأن يستنتجوا ما يشاؤون.

ج- عدم التدخل في هذه العمليات مهما بلغ الخطأ على أمل أن يردهم استنتاجهم إلى الصواب.

د- يجب أن يستمتع الأطفال بهذه الحرية، وأن لا يحرموا منها إلا عندما نخشى الخطر أو الأذى أو الضرر عليهم – وهكذا لا يصح أن يمنع الطفل من الحركة أو الاقتراب من الأشياء وامتحانها ومعرفة ما يحيط به.

هـ- وقل مثل ذلك في مسألة الكلام، فإن الحرص على ألا يسرع الأطفال إلى المنطق يجنى عليهم ويؤخرهم – ويلاحظ «روسو» أن أطفال الريف أسرع إلى الكلام- ذلك لأن المرأة في الريف لا تكون باستمرار بجوار طفلها، ومن هنا فهو مضطر أن يقول ما يريد بصوت مرتفع حتى تستطيع أمه سماعه [1].

---

(1) «إميل» ص95.

و«روسو» يُسمى هذه القواعد «بالتربية السلبية» [1]، التي ينبغي أتباعها مع الطفل في السنوات الأولى من حياته فلا يجوز أن يلقن شيئاً، ولا أن يُلقى إليه بشيء مطلقاً، بل يترك للأشياء يعالجها بنفسه.

رابعاً: تربية صوفي.. Sophie:

وصل إميل الآن إلى مرحلة الشباب وأصبح رجلاً وليس من الخير أن يترك الرجل وحيداً وقد كنا قد وعدناه برفيقة، فهلم نبحث عن الفتاة التي تناسبه، وقد لا يكون الأمر سهلاً، لكنا لن نتعجل ولن نيأس فليس من شك في وجود المرأة التي توافق قلب إميل وسوف نجدها آخر الأمر، أو نجد منْ تقترب منها.

على أننا لا بد أن نكون على وعي كامل بأن الجنسين (الرجل والمرأة) مختلفان أتمَّ ما يكون الاختلاف من حيث التربية، ومن حيث دورهما في الحياة العامة والخاصة.. الخ فيمكن لنا أن نستشير النساء في الأمور المادية التي يستطيع الحس الحكم عليها، أما الرجال فإننا نسألهم في الأمور الأخلاقية المتعلقة بالعقل فعلى المرأة أن تقتصر على ما يخصها من أمور منزلية وشؤون عائلية فها هنا يمكن أن يكون حكمها صائباً. أما موضوعات الفكر والثقافة والعلم والأدب والمعرفة.. الخ فلا

---

(1) التربية السلبية هي التربية التي تهدف إلى استكمال نمو الأعضاء- وهي الأدوات التي نعرف عن طريقها قبل أن يصل إلينا العلم، وهي التي تهيؤنا إلى المعرفة بحواسنا، ومن هنا فليست التربية السلبية أمراً تافهاً فهي تعد الطفل ليتمثل كل ما يصل به إلى الحق، حينما يكون في مقدوره معرفته، وإلى الجميل متى استطاع أن يحبه. وهكذا تتفتح عيون الطفل على ما ينبغي أن يصل إليه من معلومات.

علاقة لها بهذه الميادين، والذي يستشير النساء في أمر كتبه ومؤلفاته فلا بد أن يكون على ثقة من سوء المشورة، بل إن منْ يستشير المرأة في أمر ملابسه فليكن على ثقة من سوء هندامه!!.

ويقول الدكتور هيكل: «إن هذه الإساءة البسيطة التي يوجهها روسو للنساء ليست إلا مقدمة لما سيكتبه روسو في القسم الأخير من كتاب التربية عنهن (فى الكتاب الخامس).. وسوف يرى القارئ فيما بعد أن صوفيا ستكون خلواً من كل ثوب الإدعاء لأنها ستكون صورة منمقة مجملة من «تريز لوفاسير Therese Le Vassear..» [1] وتريز فتاة ريفية بسيطة جاهلة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولا تعرف من مبادئ الحساب شيئاً.. إلى آخر ما سبق أن ذكرناه في الفصل الأول. لكنها تقوم بالأعمال المنزلية فهي خادمة مطيعة لسيدها «روسو».

وهكذا أراد «روسو» أن تكون صوفيا زوجة إميل المقبلة التي يقوم بتربيتها تربية نموذجية خصص لها الكتاب الخامس والأخير من كتاب «إميل»، إذ لا بد أن تكون لها تربية خاصة وأن تكون هناك فروق واختلافات بين «جنسنا وجنسها» كما أننا لا بد أن نقضي على المجادلات العقيمة العابثة حول تفضيل أحد الجنسين أو المساواة بينهما، فقد وهبت الطبيعة كل جنس خصائص معينة وغاية محددة فعلية أن يسير نحو غايات الطبيعة تبعاً لمسيره الخاص فلا يكون أكثر أو أقل كمالاً، بل ينبغي أن يكون أحدهما فاعلاً قوياً، وأن يكون الآخر منفصلاً ضعيفاً، ويجب أن يريد أحدهما ويقدر بحكم الضرورة ويكفي أن يقاوم

---

(1) الدكتور محمد حسين هيكل «جان جاك روسو: حياته وكتبه» ص293-294.

الآخر قليلاً»[1].

ولقد جاء إقرار هذا المبدأ بسبب أن المرأة خلقت لتروق الرجل: أعني لإمتاعه، ولكي تخضع له، ولهذا ينبغي عليها أن تبدو جميلة في نظره، وأن لا تثير غضبه، فقوتها في سحرها فبواسطة هذا السحر بجبره أن يكتشف قوته وأن يستخدمها. والطريقة التي تثير بها قوته هي المقاومة. وإذا تساءلنا إذا ينبغي للرجل أن يروق المرأة أيضاً؟ كانت الإجابة نعم! وهو يروقها لأنه قوي فقط، وليس هذا هو قانون الحب، وإنما هو **قانون الطبيعة** الذي يسبق الحب، بل هو أقدم من الحب نفسه!.

وإذا كانت قوة المرأة في سحرها وفتنتها فإن أول خطوة في تربية الفتاة أن تتعلم كيف تتزين لتروق الرجل. والواقع أن الطبيعة نفسها جعلت من التزين أول ميل من ميول المرأة، لم يعلمها أحد ذلك، بل اننا نراها وهي طفلة تقضي نهارها مع لعبتها (العروسة) فلا تنفك تغيّر ثيابها وتلبسها وتعريها مئة مرة، ولا تمل من القيام بالترتيب والزخرفة، قد تفتقر إلى الأصابع الدقيقة، والمهارة والذوق الرفيع لكن ذلك كله يظهر ويتجلى مع تدريب هذا الميل الأساسي- الذي يعتبره روسو الميل الأول عند المرأة وهو ميل طبيعي غير مكتسب هدفه في النهاية امتاع الرجل، وتمر الساعات الطوال والطفلة منهمكة في لعبها وتسليتها دون أن تشعر بأي ملل ولقد سبق أن ذكرنا أن التزين خاصية أساسية من خصائص المرأة تبدأ بتزيين لعبتها ثم إذا كبرت انتقلت إلى تزيين نفسها، وأن الرجل يعلم عنها هذه الحقيقة- وهي تسّره، أكثر مما يسّره أن يدخل

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.322.

وانظر الترجمة العربية ص656-657.

غرفتها ليجدها متخمة بالكتب والأوراق والمجلات العلمية..الخ.

ويرتبط الملبس بالزينة أيضاً فمن المسلَّم به أن اتساع الثياب الذي لا يضايق الجسم يساعد كثيراً على جمال المرأة وتناسق جسمها، وأنا أعلم أن اتساع الملابس سوف تستنكره فتاة العشرين التي تكون عارضة أزياء أو من «مودلات» الفن لكن لا شك أنه سيكون رائعاً فيمن تكون في الثلاثين، وينبغي على المرأة أن تكون في كل سن في حال تسعد لها الطبيعة دون أن تخدع عين الرجل ويبدو لي أن نساء اليونان لم يكن يعرفن على الإطلاق هذه الملابس التي تشوه بها نساؤنا أجسادهن.. ويبدو لي كذلك أن هذه الإساءة إلى الجسد قد بلغت درجة من الحمق لا تصدق في انجلترا وأنها سوف تؤدى آجلاً أو عاجلاً إلى إنتاج جيل منحط وانحطاط النوع، أما ما يهدف إليه من سحر وفتنة فهو يدل على ذوق فاسد فليس من المستحسن أن ترى المرأة مقطوعة نصفين لما ينطوي عليه ذلك من إيذاء للنظر، وإهانة للخيال... (1).

بل حتى ألعاب الأطفال مختلفة بين الجنسين، وكذلك يوجد لهم أذواق خاصة تمَيز بعضهم عن بعض فالبنون ينشدون الحركة، والضوضاء والطبول، وتسلق المرتفعات، وركوب المركبات الصغيرة، في حين أن البنات يفضلن على ذلك ما يمتع النظر، وينفع للزينة، كالمرايا والحُلّى، وأفخر الثياب، والأشرطة وبصفة عامة الدمى (العرائس) التي هي اللعبة الخاصة بجنس الأنثى، وهذا يدل دلالة قاطعة على ميلها إلى ما يتفق مع طبيعتها، ويتجلى فن الامتاع في أساسه

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.330.
وانظر الترجمة العربية ص674.

الفزيقي الزينة الشخصية وهذا هو كل ما يستطيع الأطفال القيام به من هذا الفن».

في ظني أن كل ما يقوله «روسو» هنا بالغ الخطأ فلا شيء من الاختلاف بين الجنسين يحتم- بحكم الطبيعة- لعبة معينة، ولا ألعاب خاصة بالفتاة دون الفتى، لكن ما يحتم ذلك هو المجتمع ممثلاً في البداية في صورة الأسرة ثم المدرسة ثم الشارع.. الخ

وعلى الرغم من أننا سوف نناقش ذلك بالتفصيل عندما نعقد «مواجهة» بين الطبيعة والمجتمع» إلا أنه لا بأس من أن نسوق مثالاً واحداً يوضح ما نقول:

فالدكتورة «نوال السعداوي» انثى طبيبة ومثقفة تروي لنا طرفاً من طفولتها على النحو التالي:

كل ما كنتُ أعرفه في ذلك الوقت أنني بنت كما أسمع من أمي: بنت!.

ولم يكن لكلمة بنت في نظري سوى معنى واحد.. وهو أني لستُ ولداً.. لستُ مثل أخي.

أخي يقص شعره ويتركه حراً لا يمشطه، وأنا شعري يطول ويطول وتمشطه أمي في اليوم مرتين وتقيده في ضفائر وتحبس أطرافه في أشرطة...

أخي يصحو من نومه ويترك سريره كما هو، وأنا عليّ أن أرتب سريري وسريره أيضاً.

أخي يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أمي أو أبي ويعود في أي وقت.. وأنا لا أخرج إلا بإذن.

أخي يأخذ قطعة من اللحم أكبر من قطعتي ويأكل بسرعة ويشرب الحساء بصوت مسموع وأمي لا تقول له شيئاً.. أما أنا.. أنا بنت علي أن أراقب حركاتي وسكناتي على أن أخفي شهيتي للأكل فآكل ببطء وأشرب الحساء بلا صوت.

أخي يلعب.. يقفز.. يتشقلب.. وأنا إذا ما جلست وانحسر الرداء سنتيمتر من فخذي، فإن أمي ترشقني بنظرة مخلبية حادة فأخفي عورتي..

عورة...!

كل شيء فيّ عورة وأنا طفلة في التاسعة من عمري!

حزنت على نفسي.

أغلقت باب غرفتي عليَّ وجلست أبكي وحدي..

لم تكن دموعي الأولى في حياتي لأني فشلت في مدرستي أو لأني كسرت شيئاً غالياً.. ولكن لأني بنت!.

بكيت على أنوثتي قبل أن أعرفها..

فتحت عيني على الحياة وبيني وبين طبيعتي عداء..»[1].

وهنا نلاحظ بوضوح تام أن المجتمع ممثلاً في الأسرة يبدأ في تشكيل الفتاة في إطار معين هو إطار «الأنثى» وهو تشكيل ينسبه «روسو» وكثيرون غيره إلى الطبيعة وتواصل الدكتورة نوال السعداوي

---

(1) الدكتورة نوال السعداوي: «مذكرات طبيبة» مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 2006 ص5-6.

قصة طفولتها المنطلقة والتي كان المجتمع يضعها في قالب الأنوثة.

«قفزتُ درجات السُّلم ثلاثاً ثلاثاً لأهبط إلى الشارع قبل أن أفرغ من عد عشرة...

«إن أخي ورفاقه من أولاد وبنات الجيران ينتظرونني لنلعب عساكر وحرامية.. ولقد أخذتُ إذناً من أمي بالخروج.. أحب اللعب أحب الجري بأقصى سرعة.. أشعر بسعادة طاغية وأنا أحرك رأسي وذراعي وساقي في الهواء وأنطلق في قفزات عالية لا يحّد منها إلا ثقل جسمي تشده إليها الأرض...»[1].

وهناك الكثير من الأمثلة التي تثبت لنا خطأ «روسو» الذي يرد كل سلوك المرأة إلى الطبيعة التي خلقتها على هذا النحو، حتى قيل بحق:-

«إن جميع الحجج التي تحصر المرأة في الأسرة أو في المنزل عند معظم الفلاسفة الذين ناقشناهم تضرب بجذورها البعيدة في تصورهم للطبيعة.

«فقد تصور المرأة على أنها عبدة لعواطفها وانفعالاتها الطاغية. قادرة فقط على الاستجابة الانفعالية العاطفية للمواقف التي تجد نفسها فيها، وهي تستهلكها تماماً مواقفها غير النظرية للحب والكراهية.»[2] هكذا خلقتها الطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً كما قال أرسطو قديماً وليس في استطاعتنا تغيير شيء؛ وما يمكن للتربية أن تقوم به هو

---

(1) المرجع السابق ص6.

(2) Ellen Kannedy & Mendus: Introduction to: «women in westerr Political Philosophy» P.11.

«صقل» هذه الملكات الفطرية وتوجيهها وجهة سليمة.

خامساً: الرسم والتطريز:

من الخصائص الأساسية عند الأنثى التي ينبغي على التربية العناية بها وتنميتها عند الطفلة الصغيرة ميل الفتاة إلى الرسم والتطريز: فهذا – فى رأي روسو- ميل فطرى عندها وما على التربية سوى أن تتبع هذا الميل وتقوم بتنظيمه. ولا شك أن الفتاة الصغيرة تود من صميم قلبها أن تزخرف لعبتها وأن تضع منديلها حول عنقها وتعاريج لثوبها، ونقش على هذا الثوب، وهي تتبع في ذلك كله ذوق الآخرين» والواقع أن جميع البنات الصغار يتعلمن القراءة والكتابة على مضض تقريباً لكن الخياطة واستعمال الإبرة هو ما يتعلّمنه عن رضا دائم، وهن يتصورن مقدماً أن يكن كبيرأت ذات يوم يداعب خيالهن أمكان الانتفاع بهذه المعرفة والموهبة للتنزين والتجمل الخاص بهن يوماً ما»[1] ويسهل اتباع هذا الطريق: فالخياطة والتخريم والتطريز أمور تأتي من نفسها بطريقة طبيعية، أما فن تطريز النسيج والأثاث فهو بعيد بعض الشيء اهتمامات الفتاة وإن كان يمثل متعة للمرأة لكن نادراً ما يثير اهتمام الفتيات الصغيرات[2].

وتمتد هذه المواهب بسهولة لتشمل الرسم وذلك لأن هذا الفن ليس بعيداً عن الذوق في فن اللبس الأنيق بل على العكس يرتبط به

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.331.

وقارن الترجمة العربية ص676-677.

(2) المرجع السابق نفسه.

ارتباطاً وثيقاً لكنى لا أود منهن أن ينشغلن برسم المناظر الطبيعية ولا برسم الشخصيات إذ يكفي أن يرسمن أوراق الشجر، وثمار الفاكهة، والأزهار، ووشى الفرش، وكل ما يمكن أن يكون نافعاً لتهذيب الزينة، ولتمكين الفتاة من تصميم التطريز، والنسيج المطرز انْ لم تجد نموذجاً يناسب ذوقها فسوف يكون ذلك كافياً. وبصفة عامة إذا كان من المرغوب أن تقتصر دراسة الرجل على ما هو نافع فإن ذلك ضروري أكثر على النساء لأن حياتهن وإن كانت أقل مشقة فإنها أكثر مثابرة على القيام بواجباتهن باطراد.

ويعتقد «روسو» أن البنات بصفة عامة أطوع من البنين في عملية الخضوع للتربية وللسلطة، ولكن ينبغي علينا أن لا نستنتج من ذلك أننا نستطيع أرغامهن على القيام بشيء لا يستطعن رؤية فائدته. ويقوم فن الأمومة على إظهار فائدة كل شيء يراد منهن القيام به، وتتجلى سهولة ذلك في أن الذكاء لدى البنات يظهر مبكراً عن البنين..[1].

سادساً: الأمومة:

هناك موضوع آخر لا بد أن تهتم به تربية الفتاة اهتماماً خاصاً ألا وهو «موضوع الأمومة» ذلك أن وظيفة الأم هي الوظيفة الطبيعية للنساء جميعاً، وهي بلا شك في حاجة إلى تجميل المرأة نفسها، حتى يعني بها الرجل الذي أعدَّته لها الطبيعة لكن هناك إلى جانب الجمال ما تحتاجه حياة الزوجية والأمومة من معارف ومعلومات كما أن إدارة البيت ليست

---

(1) J. Rousseau: Emile, P.331.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص677-678.

بالأمر الهين في ذاته ومن هنا كان من الواجب العناية بصحة المرأة حتى تنشأ قوية على احتمال مشاق الأمومة كما يجب أن تتعلم ما تحتاجه تلك الإدارة من معلومات ومعارف حتى إذا اتقنتها تعيّن عليها أن تعرف الموسيقى، وأن تتعلم الرقص للترويح عن زوجها وتدخل بهما إلى بيتها من معاني النعمة ما لا غنى عنه[1].

ولا يظن ظان أن «روسو» يطالب للمرأة هنا بالعلم والمعرفة فما يتحدث عنه من معلومات ومعارف لا يتعدى درجات المعرفة الأولية البسيطة، فهو إذا كان يطعن في الحضارة عموماً، وفي الفنون والآداب والعلوم بصفة خاصة ولا يريد لها إميل أن يتعلم شيئاً منها بل يرتد إلى الطبيعة ليتعلم منها فإنه من باب أولي لا يريد لصوفيا أن تعلم شيئاً من هذه المعلومات والمعارف التي لا تقوى عليها لأن المرأة مخلوق ضعيف مستسلم وجد في الحياة لإمتاع الرجل ومسرته، وخُلق ضعيف العقل كما خُلق ضعيف البدن.

ومن ثم فإن «روسو» يرى في تعليم المرأة وثقافتها سخف ما بعده سخف، إنه يريدها أقرب إلى «تريز» المرأة الريفية البسيطة التي لا تقرأ ولا تكتب، لكنها تجيد أعمال المنزل «ولا أريد من الأم الجادة أن تأتي بابنتها من الريف إلى باريس لتطلعها على تلك المناظر البالغة الفساد لغيرها وإنما أقول إنه إذا حدث ذلك فإن هذه الفتاة إما أن تكون سيئة النشأة أو أن تكون المناظر قليلة الخطر عليها..»[2].

---

(1) الدكتور محمد حسين هيكل: «روسو: حياته وكتبه» ص316-317.

(2) J.J. Rousseau: Emile, P.352.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص721.

وإذا كان يريد لإميل أن يتعلم من الطبيعة فإنه يقول لصوفيا: العالم بالنسبة للنساء كتاب مفتوح ويقع الذنب عليهن إذا ما أساءت قراءته أو إذا أعمتهن بعض الأهواء. ومع ذلك فإن أم الأسرة الحقيقية بعيدة عن أن تكون امرأة دنيا، بل تكون في منزلها بعيدة عن هذه الدنيا «معتزلة» بل أقرب في اعتزالها إلى الراهبة في ديرها، ويعجب «روسو» من أن البنات في فرنسا يعشن في الأديرة بينما تتمتع النساء بالدنيا، في حين أن العكس هو ما كان يحدث عند القدماء، فقد كان لدى البنات – كما سبق أن ذكرنا- ألعاب كثيرة وأعياد عامة. وقد كان النساء يعشن منعزلات- وقد كانت هذه العادة أقرب إلى الصواب وأكثر حفظا للأخلاق.

فيا أيتها الأمهات، أجعلن من بناتكن رفيقات لكن على الأقل أمنحوهن حساً صادقاً وقلباً نقياً مخلصاً، ثم لا تخفوا عنهن شيئاً يمكن أن تراه العين الطاهرة، ويمكن أن يعرض على العيون السليمة بلا خطر من كل ما يفتن الشباب الغافل عند النظر إليه من مراقص وولائم وألعاب ومسارح أيضاً، فهن كلما شاهدن هذه المتع الصاخبة فإنهن سرعان ما يتوقفن عن الرغبة فيها[1].

ويشيد «روسو» الأم التي علَّمت ابنتها بعناية أشغال جنسها كتفصيل الثياب وحياكتها، ولا يوجد شغل بالإبرة لا تعرفه ولا تمارسه بلذة لكن التطريز وشغل الدانتيلا هما هوايتها المفضلة على نحو ما تعرف أمور المنزل بالتفصيل وتعرف الطهو وخدمة السفرة، وهي تعرف أثمان المواد الغذائية وخواصها، وهي تعلم قيد الحسابات جيداً وهي

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.350.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص718.

تصلح رئيسة خدم لأمها، وهي إذن قد تدربت لتكون أماً ذات يوم، وكما تعلمت إدارة منزل أمها فقد أصبحت تعلم كيف تدبر منزلها، وهي تستطيع أن تقوم بوظائف الخدم فتفعل ذلك طواعية، وما كان لشخص أن يحسن أمراً ما لم يجرب تنفيذه بنفسه وهذا هو السبب في أن أم صوفيا تجعلها تعمل في المنزل على هذا الوجه حتى تعدها لتكون زوجة، وأما في المستقبل وهذا هو الواجب الأول للأم الحالية تجاه ابنتها[1].

وهناك واجب أخير – وإنْ كان هو الواجب الأول للمرأة ومن الضروري أن تلقنه الأم للفتاة التي توشك أن تكون أما وأعني به: **النظافة**، وهو واجب مفروض من **قبل الطبيعة فلا يوجد** في العالم أدعى إلى الاشمئزاز من امرأة قذرة ولا يلام الزوج الذي ينفر ويشمئز منها ولا يكون مخطئاً على الإطلاق، ولذلك فإن على الأم أن توجه انتباه ابنتها إلى هذا الواجب منذ الصغر؛ بحيث تطلب الكثير من النظافة لنفسها وثيابها وغرفتها، وشغلها وزينتها حتى تتحول هذه الأعمال الخاصة بالنظافة إلى عادات تقوم بها بطريقة آلية، وتستهلك قسطاً كبيراً من وقتها في القيام بها لدرجة أنها لم تعد تفكر في الطريقة التي تؤدى بها شيئاً ما بقدر ما تفكر في الكيفية التي تؤديه بها نظيفا بحيث لا يكون قذراً بالدرجة الأولى.

غير أن علينا أن نتنبه جيداً ألا يهبط ذلك إلى مستوى التصنع المحض، والنعومة الفارغة، فلا محل هنا للترف الرفيع فهي حريصة ألا يدخل غرفتها سوى الماء الزلال النظيف، ولا تعرف من العطور سوى

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.359.
وانظر أيضاً الترجمة العربية ص732.

شذى الأزهار، وفي النهاية فإنها تولى عناية خاصة برائحة الفم، وما كان زوجها ليشم ما هو أحلى من نكهتها. غير أن اهتمامها بمظهرها الخارجي لا ينسيها العناية بالجوانب الداخلية، فهي تزدري نظافة البحث التي تدنس طهارة الروح - «صوفيا» ليست نظيفة فحسب بل هي أكثر من ذلك أنها طاهرة ونقية [1].

ومن الصفات التي غرستها الأم في ابنتها «صوفيا» صفة أو فضيلة الاعتدال لقد كانت الطفلة نهمة في بداية حياتها ومن الخطر أن تترك الطفلة وشأنها بلا توجيه فهذا هو دور الأم. لقد كانت صوفيا الصغيرة في طفولتها إذا ما دخلت غرفة أمها وحدها لا ترجع منها خالية الوفاض فهي لم تكن أمينة عند كل امتحان بالنسبة لأقراص السكر و»الملبس» وقد فاجأتها أمها ذات يوم فانهالت عليها لوماً وتقريعاً... وأخيراً وفقت أمها إلى حل هو إقناعها بأن الملبس يفسد الأسنان وبأن النهم والشراهة تجعل الجسم يتضخم ويترهل فلا يكون قوام الفتاة رشيقاً، وهكذا اقتنعت صوفيا وبدأت تصلح من عاداتها السيئة وأصبحت معتدلة كل الاعتدال في طعامها كما أنها لا تذوق الخمر ولا السكر على الإطلاق- غير أن روسو يفسر هذا الاعتدال تفسيراً بالغ الغرابة- يقول: «لاغرو في ذلك، فجنس الأنثى أقل كدحاً من جنسنا، ومن ثم فهو بحاجة أقل إلى تجديد النشاط، وهي في كل شيء تحب ما هو طيب وتعرف كيف تتذوقه، وهي تستطيع أيضاً أن تتوقف عما ليس جيداً وأن تعيش بدونه»[2] فحتى فضيلة الاعتدال لا يريد روسو إن ينسبها إلى المرأة

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.358. وانظر أيضاً الترجمة العربية ص733.
(2) J.J. Rousseau: Emile, P.358. وانظر أيضاً الترجمة العربية ص734.

وإنما يردها إلى طبيعتها التي لا تقوم بنشاط كبير، وبالتالي لا تحتاج إلى طعام وفير بل يكفيها أقل عدد من السعرات الحرارية» وأي قدر من التحامل والتعسف وأي قدر من الظلم والإجحاف!.

ومن العيوب التي حاولت الأم علاجها في صوفيا شدة الحساسية، فهي حساسة أكثر مما ينبغي وليس في استطاعتها المحافظة على اعتدال المزاج لكن الأم استطاعت بلباقة أن تعمل على اعتدال المزاج عند ابنتها زوجة المستقبل، و»أم» الغد فإذا نسيت «صوفيا» نفسها وانساقت وراء بعض الأهواء العابرة، ردتها أمها إلى صراط الفضيلة برفق، وحتى إذا عاقبتها أمها بدت طائعة خاضعة وكان حياؤها يصدر عن الناس أكثر منه عن العقاب [1].

سابعاً: التربية الدينية:

التربية الدينية أساسية عند الجنسين مع اختلاف بينهما فروسو يرى أن التربية الدينية ينبغي أن توضع في برنامج إميل التربوي شريطة أن لا تقدم إليه عبارة واحدة عن الدين قبل سن الثامنة عشر من عمره- وهو يعلل ذلك بأن إميل لا يستطيع فهم قواعد الدين قبل هذه السن- لكنه مع ذلك يسارع بتلقين الفتاة عقيدة أمها وزوجها، ويطالبها بالوقوف عندها والإيمان بها على الرغم من أنه يعتقد أن المرأة أضعف من الرجل عقلاً، ولقد رد روسو على هذا الاعتراض بقوله: «من الواضح أنه إذا قصر باع الصبيان من الأطفال عن أن يكوّنوا لأنفسهم فكرة سديدة

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.369.
وانظر أيضاً الترجمة العربية ص736.

عن الدين، فمن باب أولى أن تكون الفكرة فوق متناول تصور البنات. ولنفس هذا السبب أرى أن أحدثهن عنها في سن متقدمة- ذلك بأنه لو وجب أن ينتظرهن حتى يستطعن مناقشة هذه المسائل العميقة مناقشة ضيقة فقد يبقى الإنسان أبد الدهر ثم لا تحين هذه الفرصة»[1].

ولما كانت المرأة خاضعة في سلوكها للرأى العام، فإنها خاضعة في معتقداتها الدينية للسلطة إذ ينبغي على الفتاة أن تدين بدين أمها كما يجب أن تكون كل زوجة على دين زوجها، وإذا كان هذا الدين فاسداً فإن الطاعة التي تخضع بها الأم وابنتها لقوانين الطبيعة تمحو خطيئة هذا الفساد أمام الرب وإذا كانت الأم وابنتها تعجزان عن الحكم لنفسيهما فإن عليهما قبول حكم الأب والزوج، وكذلك حكم الكنيسة.

ولما كانت النساء لا يستطعن أن يستنبطن بأنفسهن قاعدة إيمانهن فإنهن لا يستطعن تعيين حدود ذلك الإيمان بدليل من العقل، وهن يسمحن لأنفسهن بالانسياق هنا وهناك بكل ألوان المؤثرات الخارجية، فإنهن باستمرار فوق الحقيقة أو تحتها، وبما أنهن يملن إلى النظر في كل شيء فإنهن إما أن يكن مستهترات أو تقيات. ولن تجدهما أبداً قادرات على الجمع بين الفضيلة والتقوى وليست كل مبالغة عندهما عرضة للوم: فالسلوك الذي ينظر إليه على أنه سيء يمارسه عليهن الرجال مسؤول عن ذلك إلى حد ما. والأخلاقيات غير المنضبطة تنظر إلى الدين بعين الاحتقار ورعب التوبة تجعل من الدين طاغية وهذا هو السبب الذي يجعل عند النساء قدراً من الدين أكثر من اللازم أو أقل من اللازم[2].

---

(1) دكتور محمد حسين هيكل «جان جاك روسو: حياته وكتبه» ص320.

J.J. Rousseau: Emile, P.340. (2)

=

ولما كانت ديانة المرأة تحكمها السلطة، فإن من المهم أن تظهر لها ما الذي ينبغي عليها الإيمان به أكثر من أن تشرح لها أسباب الإيمان به فذلك لأن الإيمان الذي يلحق بأفكار مفهومة نصف فهم هو المصدر الرئيسي للتعصب والإيمان الذي يطلب من أجل أمور لا معقولة فإنه يؤدي إما إلى الجنون أو عدم الإيمان ولا أستطيع أن أقول أي الأمرين تؤدي إليه الكتب الدينية عندنا أكثر الإلحاد أو التعصب؟! لكنني أعرف أنها لا بد أن تؤدي في النهاية إلى هذا أو ذاك[1].

وأول ما يجب علينا عمله عندما نقوم بتعليم الدين للفتيات أن لا نقدمه في هيئة هم وغم وضيق وكرب على الإطلاق، ومن هنا فينبغي أن لا يقدم لهن شيء خاص ليحفظنه عن ظهر قلب حتى ولا الصلوات بل علينا أن نكتفي بأن نقوم بتأدية الصلوات أمامهن قياماً منتظماً، وذلك من غير إكراههن على حضورها على أن تكون الصلوات قصيرة كما علمنا يسوع المسيح.

ومعرفة الفتيات للدين بطريقة فورية أقل أهمية من معرفته معرفة جيدة ومن محبته على وجه الخصوص، فإذا ما أصبح الدين عبئاً عليهن، وإذا ما وصف الخالق بأنه ساخط على النساء... الخ فسوف يجعل البنات ينفرن منه.

أما تدريس قواعد الدين للمرأة فلا بد أن يكون في شكل تعليم

=

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص696.

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.341.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص698.

مباشر لا على شكل أسئلة وأجوبة، اللهم إلا إذا اضطررنا إلى ذلك، كما هي الحال مثلاً عندما نريد تعليم الفتاة أن لا شيء خالد، ولا حتى الأجيال البشرية يمكن أن تكون خالدة. وسوف يسوق روسو حواراً طويلاً بين المربية وطفلتها بهذا الشأن سوف نعرض له بعد قليل وأول سؤال في كتاب الدين هو مَنْ الذي خلقك وأوجدك في هذا العالم؟» فمن هذا السؤال تجيب الفتاة بلا تردد أنه «الله» مع اعتقادها أنه أمها! [1].

ويتمنى روسو أن يقوم شخص بدراسة ذهن الطفل ليضع له كتاباً عن أصول الدين، وسوف يكون هذا الكتاب هو أنفع ما كِتُبَ على الإطلاق! وعندي أن المؤلف سوف ينال مكانة عالية لا سيما إذا كان كتابه جيداً وسوف يكون كذلك إذا لم يشبه كتبا الدينية إطلاقاً.

وهو يعطينا نموذجاً من الكتاب الديني الذي يكون في رأيه مقنعاً على شكل حوار بين المربية والطفلة:-

المربية: هل تذكرين متى كانت أمك طفلة صغيرة؟

الطفلة: كلا يا مربيتي.

المربية: ولم لا؟ مع أن لك ذاكرة قوية.

الطفلة: ذلك لأني لم أكن قد ولدت بعدا.

المربية: أهذا يعني أنك لم تكوني موجودة باستمرار؟

الطفلة: نعم لم أكن حَية دائماً؟

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.341.
وانظر أيضاً الترجمة العربية ص699.

المربية: فهل تعيشين إلى الأ بد؟

الطفلة: نعم.

المربية: هل أنت شابة أم عجوز؟

الطفلة: أنا شابة.

المربية: وهل جدتك شابة أم عجوز؟

الطفلة: إنها عجوز.

المربية: وهل كانت شابة؟

الطفلة: نعم.

المربية: ولم لا تكون شابة الآن؟

الطفلة: لأنها كبرت.

المربية: وهل تكبرين مثلها؟

الطفلة: لا أدري.

المربية: وأين ثيابك في العام الماضي؟

الطفلة: لقد تمزقت واهترأت.

المربية: ولم؟

الطفلة: لأنها ضاقت علي جداً.

المربية: ولم ضاقت عليك؟

الطفلة: لأنني كبرت.

المربية: وهل تكبرين أكثر من ذلك؟

الطفلة: أوه نعم.

المربية: وماذا يصير البنات الكبيرات؟

الطفلة: يصبحن نساء.

المربية: وماذا يصبح النساء؟

الطفلة: يصبحن أمهات.

المربية: وماذا تصبح الأمهات؟

الطفلة: يصبحن عجائز.

المربية: وهل ستصبحين عجوزاً؟

الطفلة: عندما أصبح أماً.

المربية: وماذا يصبح العجائز؟

الطفلة: لا أعرف.

المربية: وماذا صار جدك؟

الطفلة: مات.

المربية: ولماذا مات؟

الطفلة: لأنه كان عجوزاً.

المربية: وما مصير العجائز؟

الطفلة: يمتن!.

المربية: وأنت: متى تصبحين عجوزا؟

الطفلة: ماذا يا مربيتي! أنا لا أريد أن أموت!

المربية: يا عزيزتي لا أحد يريد أن يموت ومع ذلك فكل الناس يموتون.

الطفلة: ولماذا؟ وهل تموت أمي أيضاً؟!

المربية: نعم مثل كل الناس ! فالنساء يكبرن ويصرن عجائز مثل الرجال والعجائز ينتهي بهم الحال إلى الموت.

الطفلة: وماذا أفعل لكي أكبر ببطء؟

المربية: أخذ الحياة بحكمة منذ الصغر.

الطفلة: سأكون حكيمة باستمرار يا مربيتي.

المربية: لكن هل تعتقدين أنك ستعيشين إلى الأ بد؟

الطفلة: متى صرت عجوزاً عجوزاً جداً.

المربية: حسناً.

الطفلة: أنت تقولين إننا لا بد أن نموت عندما نصل إلى مرحلة طاعنة في السن.

المربية: ستموتين يوماً ما إذن؟

الطفلة: أعتقد ذلك.

المربية: ومَنْ عاش قبلك؟

الطفلة: أبي وأمي.

المربية: ومَنْ كان يعيش قبلهما.؟

الطفلة: أبوهما وأمهما.

المربية: ومَنْ يعيش بعدك.

الطفلة: أولادي.

المربية: ومَنْ يعيش بعدهم؟

الطفلة: أولادهم.

المربية: ومَنْ يعيش بعدهم.

الطفلة: أولادهم.

ولو أن الحوار سار على هذا المنوال فسوف ينكشف للطفلة الصغيرة أن للجنس البشري مثل أي شيء آخر بداية ونهاية، ومعنى ذلك أنه لا يمكن تطبيق فكرة الخلود على الأجيال البشرية تطبيقاً يتفق مع العقل[1].

وينصحنا «روسو»- بصفة عامة- بأن ننبذ باستمرار المعتقدات الحافلة بالأسرار والتي ليست سوى كلمات خالية من الفكر فهي لا تنقل لنا أفكاراً قط، كما ننبذ أيضاً جميع التعاليم الغريبة التي تحل محل الفضائل وأن نحافظ على الأطفال باستمرار في دائرة ضيقة من المعتقدات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأخلاق. وأن نقنعهم أن التعليم الوحيد المفيد هو الذي يعلمنا كيف نفعل الخير، ولا نجعل من البنات لاهوتيات، ولا نعلمهن من أسرار السماء إلا ما يؤدي إلى الخير البشري. وأن يعتدن ما الشعور بأنهن تحت عين الرب دائماً، وعليهن أن

---

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.343.
وانظر أيضاً الترجمة العربية ص699- 703.

يجعلن الله شاهداً دائماً على أفعالهن وسلوكهن وأفكارهن وفضائلهن وعمل الخير لأن الله يحب هذا العمل، واحتمال الأذى بلا تذمّر لأن الله سوف يعوضهن عنه. وأن يكن في جميع مراحل حياتهن ما تقر به أعينهن حين المثول أمام الله؛ فهذا هو الدين الصحيح، وهذا هو الدين الوحيد الذي ليس فيه مجال للتعصب أو الإلحاد. ودعوا غيري يبشر بدين أسمى أما أنا فلا أعترف بدين غير هذا على الإطلاق![1].

(1) J.J. Rousseau: Emile, P.344.
وانظر أيضاً الترجمة العربية ص705-706.

الفصل الخامس

مفارقات روسو...

«لا بد أن تكون المرأة -من ناحية- مثيرة ومغرية. لكنها لا بد من ناحية أخرى- أن تكون خجولة ومحتشمة وأن تكون ذات حسية جنسية محبوبة... على أن تسيطر على هذه المشاعر وأن تعمل على كبح جماحها..»

روسو

أولاً: تمهيد:

نعني بالمفارقة Paradox هنا التناقض الظاهر، أو قل التناقض – كما قال كيركجورد بحق- المتحقق بالفعل على نحو ما هو سائد في الديانة المسيحية فمريم عذراء لكنها أم، والمسيح إنسان لكنه اله...الخ – هكذا فهم كيركجورد المفارقة التي هي تناقض متحقق.

أما بالنسبة «لروسو» فنحن نستطيع أن نقول إن حياته كانت مليئة بالمفارقات أو التناقضات المتحققة بالفعل وسوف نرد الكثير من الأمثلة على هذه المفارقات بعد قليل، كما أن مؤلفاته زاخرة بالتناقضات الظاهرة، وفلسفته بدورها مليئة بالمفارقات أو التناقضات الواضحة بل حتى معتقداته لم تخلو هي الأخرى من المفارقات فهو بروتستانتى لكنه لا يلبث أن يتحول إلى الكاثوليكية ويتخلى عن معتقداته الأولى، لكنه مع ذلك لا يثبت على المعتقد الجديد وإنما بعد فترة يعود إلى المعتقد الأول فيتحول من الكاثوليكية عائداً مرة أخرى إلى البروتستانتية: بل حتى في حياته الخاصة يصاحب هذا ثم لا يلبث أن ينقلب عليه ولا مانع من أن يصبح من ألد أعدائه. حدث هذا مع كثيرين على رأسهم فولتير في فرنسا وهيوم في انجلترا، وقل نفس الشيء بالنسبة للنساء وهن كثيرات: يكشف في الاعترافات عن أشياء مخجلة بل شاذة كان يقوم

بها، ليلفت أنظراهن فهو مغرم متيم لكنه عندما يعود إلى أوراقه يكتب عنهن أسوا الأوصاف ويهبط بهن: من حيث الثقافة والقدرات، والأمانات إلى أسفل سافلين!.

ثانياً: مفارقات الحياة:

لقد سبق أن ذكرنا في الفصل الأول أن حياة روسو – مثل كتبه وفلسفته- مليئة بالمفارقات فهو مثلاً يعيش مع «تريز» الفتاة الريفية البسيطة التي يروي لنا أنها كانت على جانب كبير من الغباء والجهل والأصل الحقير الوضيع- لكنه في الوقت نفسه يذهب إلى صالونات باريس وما فيها من نساء جميلات ذكيات مثقفات من أصول رفيعة وبيوتات عالية فهو يصادق مدام «ديناى» و «هودتو»، و «بوفزفال» و «دوبن» ومثيلاتهن كثيرات من كبريات الطبقة الراقية وسيدات الصالونات الفخمة، ويتصل به بعضهن اتصالاً وثيقاً حتى أنهن يتركن في حياته أثراً غير ضئيل- وهو يعيش مع امرأة بارعة الجمال هي «مدام دي فارنس Mme de Warens» وكان في الثامنة عشرة من عمره – كانت تدعوه «صغيري» ويدعوها «أمي»- ولما شعرت أنه على وشك أن تغويه النساء أسلمت له نفسها.. وكتب في اعترافاته: «ارتكبت جريمة زنا المحارم، وبللتُ صدرها بدموعي مرتين أو ثلاثة وأنا أضمها بين ذراعي في وجد..» وقضى زمناً يضاجعها مع مدير أعمالها «كلود آنية» فلما مات الأخير أصبح روسو سيد البيت والمكلف بتدبير أمورها!- وعندها تعرف على أعلام الفكر الفرنسي من أمثال «ديدرو» و «كوندياك»- وغيرهما..! ومع ذلك لم يكتب كلمة واحدة طيبة عن النساء! بل على العكس شن حملة عنيفة على قدرات النساء وملكاتهن، ونسي أنه كان ذلك المتشرد الذي قضى شطراً كبيراً متنقلاً بين أحضانهن باكياً على

صدورهن تارة وتحت أقدامهن تارة أخرى!. حتى حماته السيدة «لوفاسير» استغلها أسوأ استغلال فقد كانت تعمل عنده كسكرتيرة خاصة له- إلى جانب ما تقوم به من خدمات أخرى بسيطة يحتاج إليها لكي يوفر أجر الخادم على حد تعبيره![1].

ثالثاً: مفارقات التفكير:

من المفارقات الغريبة أن يشن المفكر والفيلسوف «جان جاك روسو» حملة عنيفة ضد التفكير، يقول بصراحة ووضوح «أنا أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل هي حالة تناقض الطبيعة.. وأن الإنسان الذي يتأمل ويفكر هو حيوان فاسد!» عبارة بالغة الغرابة، حتى ذهب بعض النقاد في تفسيرها إلى أن «روسو» في أغلب الظن أراد بها أن يدهش فلاسفة عصره، بل ربما أيضاً جميلات ذلك العصر!.

ويقول «روسو» بهدوء واطمئنان: «من الطبيعى ألا يفكر الرجل مطلقاً، فالتفكير فن يتعلمه مثل جميع الفنون الأخرى.. وهو فن يتعلمه بأصعب مما يتعلم الفنون الأخرى ولا أعرف للجنسين سوى طبقتين مختلفتين الأولى مؤلفة من أناس يفكرون وأما الأخرى فمؤلفة من أناس لا يفكرون مطلقاً، وينشأ هذا الاختلاف عن التربية حصرياً، ولا يحق للرجل من أولى هاتين الطبقتين أن يصاهر الطبقة الأخرى مطلقاً...»[2].

أليس غريباً على مفكر أن يطعن في التفكير؟ ألا يطعن في نفسه

---

(1) راجع ما سبق أن ذكرناه في الفصل الأول من هذا الكتاب.

(2) J.J. Rousseau: Emile P.371.

وانظر أيضاً الترجمة العربية ص760.

في هذه الحالة؟! ألا يهبط في هذه الحالة من طبقة المفكرين إلى طبقة العامة إلى الطبقة الدنيا في المجتمع التي تجعل شعارها- كما هي الحال عندنا- «اللي يفكر يتعكر!!» وهو لا يريد أن يعكر صفو الطبيعة الخلابة، ألا يكون فولتير على حق عندما كتب له يقول: «تسلمت كتابك الذي تهاجم فيه البشرية، وتريدنا أن نسير على أربع، على أنني قد أقلعتُ عن هذه العادة منذ أكثر من ستين عاماً! «ألا يتفق «روسو» مع شاعرنا العربى الاتكالي الذي أراد أن يُلقي بأعباء الحياة كلها على الله فهو الخالق الرازق المانح العاطي الوهاب...الخ- فقال:-

دع الأمور تجرى في أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البال

ما بين غمضة عين وانتباهتها يُغّير الله من حال إلى حال

رابعاً: مفارقات الفن والفنان:

كما كان «روسو» مفكراً يطعن في التفكير فقد كان كذلك فناناً وأديباً يشن حملة عنيفة على العلوم والفنون ويعتقد أنها السبب في فساد الأخلاق وانهيار القيم، فهذا الرجل الذي طعن في الفن والفنانين قضى شطراً كبيراً من حياته يعمل على نسخ «النوتة الموسيقية» ويكتب الروايات الغرامية مثل «هلويزة الجديدة» وغيرها وهو يشن حملة عنيفة على المسرح منددأ بالمحاولات التي تريد إقامة مسرح في جينيف لأنه يزيف الحياة، ويجعل الممثلين والممثلات يقومون بأدوار غير حقيقية، ويجسدون شخصيات لا يعرفون عنها شيئاً- مع أنه كَتَب للمسرح «عراف القرية» وكذلك مسرحية «نارسيس» – فضلاً عن أنه كان دائم الذهاب لمشاهدته، وكم كانت سعادته غامرة عندما مُثّلت مسرحيته الهزلية «نارسيس» التي مثلّتها فرقة الكوميدي فرانسيز في 18 ديسمبر عام 1752 فيا لها من مفارقة!.

خامساً: مفارقات عن التربية:

فى أي مجال شئت سوف تجد العديد من المفارقات ونحن الآن في مجال التربية الذي اهتم به اهتماماً كبيراً نجد أن «روسو» المعلم والمربي الحريص على تربية الطفل تربية صالحة يلقي بأطفاله الخمسة إلى ملجأ اللقطاء!.

لكنا نريد أن نقف قليلاً عند موضوع يبرز تناقض «روسو» لا بين النظر والعمل- بل في مجال الفكر التربوي نفسه: ففي عام 1771 كتب «روسو» دراسة بناء على طلب الكونت «فيهورسكى» الذي رآه يطالب بإصلاح التعليم - فطلب منه أن يكتب عن حكومة بولندا فكتب روسو رسالة بعنوان: «تأملات حول حكومة بولندا»[1] يطالب فيها هذه الحكومة بالعمل على إصلاح التعليم. وهو هنا يشدد بوضوح على التربية الوطنية ويرى أن التربية بصفة عامة هي التي تطبع الروح بطابع الوطنية وتوجه أفكارها وأدواتها في تلك الوجهة التي تجعلها وطنية بالميل والانفعال والضرورة وبالتالي ينبغي أن يفتح الطفل عينيه على أرض الوطن منذ لحظة ميلاده ولا يرى غيرها حتى لحظة وفاته، فلا بد أن يرضع كل جمهوري صادق حب الوطن مع لبن أمه: حب القانون، والحرية فمثل هذا الحب هو وجوده كلا، بل هو قوام حياته، فهو لا يرى شيئاً سوى الوطن، أما إذا عاش وحده بعيداً عن وطنه، أعني إذا عاش في عزلة فإنه يصبح لا شيء؛ إذا توقف عن أن يكون له وطن، فإنه بعد

---

(1) ديفيد روبنسن وأوسكار زايت: «روسو» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام سلسلة أقدم لك العدد 696 من المشروع القومي للترجمة المجلس الأعلى للثقافة عام 2005.

ذلك لن يكون له وجود، فإذا لم يكن ميتاً فهو أسوأ من الميت[1].

هـذا الـنص الجميـل الـذي يـدعو إلـى غـرس الوطنيـة فـي نفـوس الأطفال منذ الصغر ينقلب رأساً على عقب في كتابه «إميل» حيث ينحو باللائمة على التربية السائدة في عصره «حتى لقد بلغ من أثر هذه التربية فـي النفـوس أن أصـبحت الوطنيـة كبـرى الفضـائل الإنسـانية، وصـارت الذاتيـة القويـة كريهـة عنـد النـاس فـأطلقوا عليهـا أسـماء الإثـرة، وحـب الـذات، واعتبروهـا مـن شـر الرذائـل، ثـم راحـوا يتغنـون بأحاديـث النـاس الذين هانت عليهم نفوسهم في سبيل المجتمع.

ولما كانت غاية التربية هي تنمية ملكاتنا في سبيل الحصول على الرجل الطبيعي، بأسمى معانيه، الرجل الطبيعي الذي يستطيع مكافحة الحياة بقوة وصلابة وعزيمة جبارة بحيث تقوى شخصيته وفرديته وذاتيته إلى أقصى الحدود- كانت التربية الحاضرة التي تدعو إلى إذابة الفرد في المجتمع باسـم الوطنية تتناقض تمام التناقض مع التربية الطبيعية، فهي تسلبه قـوة الجسـم كمـا تسـلبه ملكـة التقـدير إذ تجعلـه لا يـرى بعينـه، ولا يسمع بأذنه وإنما يرى بعين المحيطين به، ويسمع بأذانهم، وتسلبه دقة النظـرة فـي الأمـور إذ يأخـذ المجتمـع وقتـه ولا يسـمح لـه إلا بمقـدار مـا يستطيع منـه تكـوين رأي سـطحي عـن الأشـياء يكفـي لإسـعاد المجتمـع ويـروي لنـا «روسـو» مجموعـة مـن النمـاذج التـي قـدمتها المجتمعـات القديمـة حيـث طمسـت وفيهـا شخصـية الفـرد باسـم الوطنيـة ممـا يقتـل

(1) J.J.Rousseau: «Considerations on The Government of Poland» in Rousseau's political writings «Eng. Trans. F.M Watkins' Nelson philosophial texts 1953 P.176.

الملكات الطبيعية ويمنع نموها مع أن ذلك هو الهدف الأول للتربية من الطبيعة[1].

1- كل جماعة مهما صغرت توحّد نفسها على نحو راسخ فإذا ما انسلخت من الآخرين فإنها تميل إلى الانسحاب من المجتمع الكبير وكل وطني يكره الأجانب، فهم بشر فحسب، وليسوا شيئاً آخر بالنسبة إليه. وهذه النقيصة لا مندوحة عنها، وإن كانت بلا أهمية إذ المهم أن يكون رفيقاً كريماً مع مَنْ حوله من المواطنين، فقد كان المواطن الاسبرطي أنانياً ظالماً جشعاً مع الأجانب، لكنه كان عادلاً غير أناني يحكم الانسجام وطنه. ولا تثقوا في الأفراد الذين يدعون إلى المواطنة العالمية Cosmopolitans الذين يبحثون في كتبهم عن واجبات بعيدة، ويهملون تلك الواجبات القريبة منهم، أولئك الذين سوف تشويهم نار «التارتاروس» Tartarus[2].

2- إن الإنسان الطبيعي عند روسو يعيش من أجل نفسه فقط وهو وحدة واحدة، وكل مطلق لا يعتمد إلا على نفسه أو مَنْ يشبهه. أما المواطن الذي يُربى من أجل المجموع فهو كسر عددى تعتمد قيمته على الكل أعني على المجتمع، أما المؤسسات الاجتماعية الجيدة فهي في نظرهم تلك التي تعرف كيف تطمس الإنسان الطبيعي

---

(1) د. محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته وكتبه» ص224، 225.

(2) تارتاروس أو طارطاروس.. Tartarus المنطقة الدنيا من العالم السفلي في الأساطير اليونانية حيث يعاقب أعتي الأشرار راجع:
د. إمام عبد الفتاح إمام: «معجم ديانات وأساطير العالم»، المجلد الثالث ص301 وما بعدها مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996.

وتجرده من كيانه المطلق وتمنحه كياناً نسبياً وتلغى استقلاله لتضع بدلاً منه اعتماده على الآخرين بحيث لا ينظر لنفسه على أنه واحد بل جزء من كل فالمواطن الروماني لا يهمه كثيراً أن يكون فرداً فذاً مثل... كايوس Caius أو لوسيوس Lacius بل يكفيه أن يكون رومانياً[1].

3- ويذكر لنا «روسو» جانباً من تاريخ القائد العسكري الروماني «ماركوس ريجولس M.Regulus (توفي حوالي 250 قبل الميلاد) الذي أسره القرطاجيون في الحرب البونية Punic [2] الأولى وأرسلوه إلى روما ليبحث أمر الصلح، لكنه نصح الرومان بمواصلة الحرب، ثم عاد إلى قرطاجة وفاء لوعد كان قد قطعه على نفسه إذا ما رفضت روما شروط القرطاجيين، ومن ثم نفذوا فيه حكم الإعدام- وهكذا كان يغلب عليه جانب الوطنية فقد ضحى بنفسه في سبيل وطنه، ولم يعد هذا النموذج موجوداً ولا نريد له أن يوجد بيننا[3].

4- يذكر روسو أيضاً نموذج الاسبرطي بيداريتس Pedaretes الذي رشح نفسه ليكون عضواً في مجلس الثلثمائة لكنه عندما رُفض طلبه- عاد مسروراً غاية السرور لأنه وجد ثلثمائة رجل في اسبرطة

(1) Emile. P. 8.

(2) الحروب البونية هي ثلاثة حروب دارت بين روما وقرطاجة لأعوام طويلة.

(3) Emile, P,8.

وانظر الترجمة العربية لكتاب «إميل» ص32، 33.

أفضل منه- فهو لا يهمه ذاته بل يهمه وطنه: اسبرطة.

5- والنموذج الأخير- سبق أن ذكرناه- وهو للمرأة الاسبرطية التي كان لها خمسة أبناء في الجيش قُتلوا جميعاً في المعارك لكنها لم تهتم بذلك بل كان همها كله هو انتصار اسبرطة- منتهى الوطنية- وتقول أم أخرى وهي تدفن ولدها «إنه لمصير عظيم حقاً. ألست أدفنه لأنه مات من أجل اسبرطة؟!»[1].

وهكذا ينبهنا «روسو» إلى أن المواطن الاسبرطي كان قد فقد هويته الكبرى عنده هي «الوطنية» التي أصبحت تأتيه على نحو طبيعي مع أن الطبيعة تقضي بتربية الإنسان ليكون رجلاً لا ليكون رومانياً ولا فرنسياً ولا مصرياً لقد حكت مدام «دبناي» في مذكراتها أنها زارت مسيو لينان Linant الذي كان معلما لأبنها ومعها مسيو دكلو Duclos وقد ناقش دكلو المعلم في أمر تربية الطفل وقال له علِّمه قليلاً من اللاتينية ولا تعلمه اليونانية على الإطلاق فليس فيها أية فائدة. ونحن لا نريد له أن يكون انجليزياً أو رومانياً أو مصرياً أو يونانياً أو اسبرطياً وإنما نريد له **أن يكون رجلا صالحاً لكل شيء** لقد أراد «روسو» في «إميل» أن بنى التربية على قواعد الطبيعة والطبيعة لا وطن لها، مع أنه كان يقول في السابق في دراسته: «تأملات حول الحكومة البولندية» إن التربية الوطنية لا تكون إلا للأحرار وحدهم فهم الذين يستمتعون بالوجود الجمعي وهم الذين يلتزمون حقاً بالقانون[2].

---

(1) راجع في ذلك الترجمة العربية «لإميل» ص33 والإنجليزية Emile. P.8 وكتابنا «أفلاطون.. والمرأة» من طبعة دار التنوير بيروت 2009 ص69.

(2) Considerations on Poland Government in Rousseau Writings, P.176.

6- وفي رسالته «تأملات حول حكومة بولندا» كان يحبذ التربية الجماعية ويرى وجوب تربية الأطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وبين أبناء سواء الشعب. وكان يرى أن لا يبقى المعلمون مع تلاميذهم زمناً طويلاً وكان يرى أن تتولى الحكومة أمور التربية والتعليم، لكنه ربما كان في بحثه «تأملات حول الحكومة البولندية» يتحدث عن التربية بطريقة عارضة ودون تفكير فيما تحدثه آراءه فيها عند الطبقات الرفيعة (الأشراف والأغنياء) من أثر.

يقول روسو في دراسته: «تأملات حول الحكومة البولندية» أن البولندي إذا ما بلغ سن العشرين لا ينبغي أن يكون رجلاً آخر، بل أن يكون بولندياً فحسب. وأود منه عندما يتعلم كيف يقرأ فإنه ينبغي عليه أن يقرأ عن بلاده. وفي سن العاشرة عليه أن يألف جميع منتجاتها وفي الثانية عشر أن يعرف جميع محافظاتها، وطرقها، ومدنها، وفي سن الخامسة عشر يكون قد عرف تاريخها كله، وفي السادسة عشر أن يعرف كل قوانينها ولا بد أن ينظم القانون ذلك كله: النظام ومضمون وشكل الدراسة. ولا بد أن يكون المعلمون بولنديين فقط وليسوا أجانب، وأن يكونا جميعاً متزوجين إن كان ذلك ممكناً، وأن يكونوا شخصيات على خلق، ونزاهة، وبصيرة، وأصحاب إنجازات.

أنا لا أحب التمييز أو التفرقة بين المدارس والمعاهد التي تؤدي إلى ظهور أنواع وأشكال مختلفة ومنفصلة من التربية والتعليم نوع للأغنياء ونوع للفقراء بل لا بد أن تكون هناك مساواة بين الجميع وأن ينص على ذلك في دستور الدولة إذ ينبغي أن يكون التعليم معاً- أغنياء وفقراء وبنفس الطريقة وإذا كان من المستحيل تقديم نظام عام للتربية،

فلا أقل من أن تكون النفقات في استطاعة الفقراء ثم ألا يمكن أن يكون هناك عدد معين من المنح الدراسية المجانية أعني على نفقة الدولة على غرار المنح الطلابية في فرنسا..؟ على أن تقدم هذه المنح إلى الطلاب الفقراء لا على سبيل الإحسان، وإنما لما أدّوه من أعمال حسنة ومن ثم فهم يستحقونها كمكافأة على عملهم[1].

وهكذا نجد كيف كان التناقض صارخاً عند روسو في بحثين عن التربية الأول «تأملات حول حكومة بولندا» والثاني «إميل أو التربية» في الأول يدافع عن التربية الوطنية التي يريد أن يرضعها الطفل مع لبن أمه، وفي الثاني يريد له أن يكون فرداً قائماً بذاته، فرداً طبيعياً يهتم بنفسه فقط، ذلك لأن الطبيعة لا وطن لها! وفي الأول كان على سجيته يكتب بحس وطني خالص فيطلب التعليم للكل: أغنياء وفقراء وفي الثاني كان يكتب وعينه تراقب الأشراف والأغنياء ومن ثم فقد وضع لأبناء الأشراف تعليماً خاصاً هو الذي أراده لإميل وصوفيا..!!

ومن مفارقات التربية أيضاً التي ينبهنا إليها الفيلسوف الأمريكي المعاصر جون ديري (1859-1952) أن ردَّ كل شيء في حالة التربية إلى الطبيعة (كما هي الحال عند روسو) ليس في الحقيقة سوى إلغاء للتربية نفسها اعتماداً على الظروف الطارئة[2].

---

(1) J.J.Rousseau: «Considerations on The Government of Poland» in Rousseau's political writings Trousland amd Editea F.M watkins' Nelson Philosophial texts P.177- 178.

(2) جون ديوي: «الديمقراطية والتربية وهو مقدمة في فلسفة التربية» ترجمة الدكتور متى عقراوي، وزكريا ميخائيل- مطبعة لجنة التأليف- والترجمة =

سادساً: مفارقات سياسية:

لم يكن روسو معتدلاً كمعاصريه من الذين حملوا لواء الإصلاح المعتدل مثل «مونتسكيو (1689-1755) وفولتير (1694 -1778) بل أراد روسو التوسع في منح هذه الحقوق لتشمل كافة طبقات الشعب الاجتماعية [1] فقد اتفق الأفراد على إقامة المجتمع السياسي المنتظم.

ومن هنا اشتركت آراء الفرد مع غيره لخلق ما يسمى بالآراء العامة التي هي أساسية في تكوين العقد الاجتماعية الذي تقوم عليه الدولة؛ وهذه الآراء العامة لا تسعى لتحقيق مصلحة خاصة، ولا غايات أنانية للأفراد، وإنما هي تحاول تحقيق المصلحة العامة فقط.

ويقول لنا روسو في عبارة في غاية الأهمية في كتابه العقد الاجتماعي:

«إذا كانت السيادة لا يمكن التنازل عنها فإنها لنفس السبب لا يمكن أن تتجزأ، لأن الإرادة إما أن تكون عامة أو لا تكون- ولكى تكون الإرادة عامة ليس من الضرورى أن ينعقد عليها الإجماع باستمرار، بل من الضروري إحصاء جميع الأصوات. وأي استثناء أو استبعاد رسمي أو مقصود يبطل عموميتها ويدمرها.»[2].

=

والنشر بالقاهرة عام 1946 ص96.

(1) J.J.Rousseau: «The Social Contract» Eng. Trans. By Mowrice Cranston, Penguin Booke P. 70.

(2) د. مهدي محفوظ: «اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث». المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى عام 1990 ص144.

أ- وإذا صحَّ ذلك وكانت الإرادة العامة لا تقوم لها قائمة إذا كان هناك استثناء أو استبعاد لأفراد معينين لأن ذلك يبطل عموميتها ويدمرها- فكيف يمكن أن يوافق «روسو» ببساطة شديد على استبعاد لا مجموعة ولا طائفة معينة بل نصف المجتمع عندما يستبعد النساء من ميدان الحياة السياسية؟! ألسنا نقف في هذه الحالة أمام مفارقة غريبة؟!.

ب-ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن القوانين التي ينبغي أن تكون عامة، وأن يشارك الجميع في إصدارها. ولا بد أن تكون المشاركة متساوية – بحيث يحاول كل مشارك أن يقرر عقلياً وموضوعياً- ما هو المشترك، وما هو الصالح العام – فكيف لا يسمح للنساء بالمشاركة في سن القوانين التي يقال لنا إنها تصدر بإجماع «المواطنين» حتى لا تجيء ممثلة لفئة دون فئة أو طائفة دون طائفة أخرى؟! ألا تمثل القوانين في هذه الحالة فئة معينة هي الرجال وحدهم أي نصف واحد من أفراد المجتمع في الوقت الذي تهمل فيه مصالح النصف الآخر؟!.

ج- وإذا كانت الحرية كما يعرفها روسو تكمن في إطاعة القوانين التي نسّنها لأنفسنا «فتلك هي الحرية الأخلاقية الحقيقية وهي التي تجعل من الإنسان سيد نفسه حقاً» إذا صحَّ ذلك- وإذا كانت النساء لا تشارك في سن القوانين- فإن ذلك يعني أنهن مازلن يخضعن لنير العبودية- مع أن هذه النتيجة تتعارض تعارضاً صارخاً مع العبارة الأولى التي يفتتح بها روسو كتاب العقد الاجتماعي:

«يولد الإنسان حراً إلا أنه مكبل بالأغلال في كل مكان».

أم أننا نصل إلى نتيجة أخرى وهي أن المرأة لا تدخل في زمرة

البشر؟! وأن كلمة الإنسان «Mam أو L'Homme التي يستخدمها في هذه العبارة لا تعني سوى الرجل فحسب.؟[1].

يقول كوندرسيه الفيلسوف والسياسي الفرنسي (1743- 1794) الذي كان من قادة الثورة الفرنسية- لكنه انتحر بعد اعتقاله - يقول منادياً بتحرير المرأة ومطالباً لها بحقوقها السياسية لم ينتهك الرجال مبدأ المساواة في الحقوق عندما حرموا نصف الجنس البشري من حق المشاركة في وضع القوانين؟!» لكنه للأسف الشديد عندما تقدم عام 1793 بمشروع دستور جديد لم يذكر شيئاً عن حقوق المرأة!!.

ويبدو أن هذه المفارقات والمتناقضات كانت سمة العصر، فالثورة الفرنسية التي حررت العبيد وحرمت الرق كانت تتخذ من الصحف الجنسية أسماء نساء سخرية قاسية.. حتى بنات الهوى لم يعاملن في تاريخهن بتلك القسوة التي عوملن بها في ذلك القرن فقد كن يسقن مغلولات إلى المستعمرات الأمريكية لتعميرها.

ولن نعجب بعد ذلك أن لم ينجب التيار العقلي عدداً كبيراً من المدافعين عن قضية المرأة. ومع ذلك لا يجوز أن نمر مرور الكرام دون أن ننوه ببعض جهودهم فمنتسكيو على سبيل المثال أعلن من عام 1721 «أن سيطرة الرجل على المرأة هي الاستبداد بعينه في الرسائل الفارسية» وقد أدان مونتسكيو فيما بعد سلطة الزوج «لأنها من صنع الحكومات المستبدة» [2].

---

(1) لاحظ أن كلمة «الإنسان» العربية تعني الرجل والمرأة بلا تفرقة، وهكذا تتفوق على الكلمة الأجنبية- الإنجليزية أو الفرنسية التي تزرع التمايز العنصري بين الجنسين.

(2) راجع في ذلك كله مونيك بيتر المرأة عبر التاريخ: تطور الوضع النسوي

سابعاً: مفارقات متفرقات:

رأينا كثرة كثيرة من المفارقات في حياة روسو ومؤلفاته وفكره وفلسفته ومواقفه التربوية والسياسية...الخ فإذا كان فيلسوفنا قد كتب في مجالات متعددة من الحياة فقد كانت له آراء خاصة في المجتمع الحديث، إذ كان ينحو باللائمة على الحضارة ويعتبرها أساس الفساد ومنبع الداء في كل ما أصاب البشر من شرور فالطبيعة البشرية في رأيه خيره ولم تفسدها سوى المدنية الحديثة التي زادت من الفوارق الاجتماعية ومن هنا فقد أصاب عصره، كما أصاب معاصريه بصدمة شديدة- الذين كانوا ينظروا إلى الحضارة الحديثة بوصفها علامة على التقدم ورقي الإنسان!.

كما أن كتاب «إميل» يظل كتاباً ساحراً مليئاً بالمتناقضات والمفارقات. وربما كان من غير المحتمل أبداً أن نعزل الطفل عن المجتمع بالطريقة التي يقترحها «روسو» لكن سيظل «إميل» موجوداً في مجتمع صغير غير متكافئ مؤلف من اثنين من الراشدين هما بالفعل «فاسدان» ويعتقد «روسو» أن «إميل» لا بد أولاً أن ننزع عنه طبيعته إن أردنا منه أن ينضم إلى المجتمع مواطناً فاضلاً محباً لوطنه.

ومعنى ذلك:-

أ- أن التربية الفردية أصبحت بغير معنى.

=

من بداية الحضارة إلى يومنا الراهن» ترجمة هتريت عبودى- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت.

ب-أن الطبيعة الفطرية في الإنسان لا بد من قمعها والسيطرة عليها في نهاية الأمر..!.

لكن ربما كان الجانب المفيد في كتاب «إميل» أنه أغضب ماري وولستون كرافت Mary Wallstonecraft (1759-1797) فنهضت للدفاع عن بنات جنسها فكتبت كتابها الشهير «دفاع عن حقوق المرأة». «A Vindication of the Rights of women» عام 1792 رداً على روسو!

ومن مفارقات «روسو» العجيبة أنه إنسان مثقف يرى أن الثقافة هي مصدر الشقاء، وأن الإنسان الطبيعي (الذى هو النموذج الأول للإنسان عنده) كان ينعم بجهله، سعيداً بحرية أفكاره!.

وها هنا نصل إلى مفارقة الحرية التي سوف يهاجمها هيجل بعنف: إذ المعروف أن التاريخ عند هيجل هو تقدم الوعى بالحرية – وهكذا تصل الحرية إلى تحققها الفعلى مع ظهور الدولة – وهذا عكس ما يقوله روسو إذ يتناقض تناقضاً تاماً مع فكرة هيجل القول «بأن الإنسان حر بالطبيعة»- وأن الدولة هي التي تحدّ من هذه الحرية. ويعتقد هيجل أن القول بأن الإنسان حر «بالطبيعة» صحيح بمعنى واحد هو القول بأن الإنسان حر من حيث ماهيته ذاتها وذلك يعني أن لديه الإمكانات التي يصير بفضلها حراً- وهذا ما سوف تكشف عنه الوجودية بوضوح فيما بعد- لكن من الواضح أن «روسو» لم يقصد ذلك، بل يعني أن الإنسان كان يعيش في مرحلة سابقة حياة طبيعية حرة، فعلاً، يجري فيها مع الحيوانات ووحوش البرّية في الغابات دون أن يعوقه عائق، ودون أن يَحدَّ شيء من تصرفاته وأفعاله، ودون أن تقيد أفكاره أية قيود! وذلك هو بالضبط ما يعترض عليه هيجل فهو يرى من ناحية أن

هذه الحالة لا ترقى إلى مستوى التاريخ. ومهما بذلت من جهود لإثبات ذلك. فمن العسير إظهار أن حالة كهذه كانت موجودة بالفعل أو أن ذلك قد حدث بالفعل في أي وقت مضى!.

ومن ناحية أخرى فإن مثل هذه الحالة الهمجية لا بد أن تسودها الأهواء والانفعالات الطاغية والوحشية، وأعمال العنف ومع ذلك فإنها مهما كانت بساطة ظروفها وسذاجتها تتضمن تنظيمات اجتماعية تعمل على قمع الحرية (إن شئنا استخدام التعبير المألوف) – فهذا الزعم هو إحدى تلك التصورات الهلامية التي ينتجها التفكير النظري المفرط، وهي فكرة لا يمكن أن يتجنب هذا التفكير ظهورها، ولكنه يفرضها على الوجود الحقيقي دون مبرر تاريخي كاف[1].

ولستُ أدرى كيف يمكن لروسو أن يتصور الإنسان حراً في حالة الهمجية هذه؟ مع أنه كان عبداً من زاويتين:

الزاوية الأولى: هي غرائزه وانفعالاته وأهوائه ومشاعره التي تسوقه ولا يستطيع السيطرة عليها. فهذه تحتاج إلى تدريب طويل، ودرجة من التربية والتقدم ليست متوفرة عنده على الإطلاق.

والزاوية الثانية: هي الطبيعة نفسها التي كان جهله لا يجعله قادراً على تفسير ظواهرها تفسيراً صحيحاً، فيضطر إلى عبادتها، فيكون عبداً لها بالمعنى الحرفي للكلمة. ذلك لأن الظاهرة الطبيعية مثل هبوب

---

(1) هيجل «العقل في التاريخ» المجلد الأول من محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق د.إمام عبد الفتاح إمام – العدد الأول من المكتبة الهيجيلة الطبعة الثالثة 2007، دار التنوير للتأليف والترجمة والنشر ص112.

الرياح وسقوط المطر والزلازل والبراكين وفيضان النهر..الخ- لا بد من تفسيرها، ولما كانت ثقافته لا تمكنه من ذلك في الوقت الذي يقول لنا علم النفس» مبدأ بالغ الأهمية هو «إن تفسير الظاهرة أي تفسير خير من بقائها بلا تفسير..»! فالريح التي تهب فتقتلع كوخه تعبر عن إله غاضب، كذلك قل في النهر غيض ماؤه- إله غاضب آخر، ويحتاج كل منهما إلى طقوس وقرابين نتقرّب بها من هذا الإله لعله يرضى عنا فتهدأ الريح ويغمر الماء النهر... الخ حتى أن علماء الأديان يذهبون إلى أن المعبودات التي عبدها الإنسان في رحلته الطويلة تكاد لا تقع تحت حصر – وإن كان العلماء يصنفونها عادة في ست مجموعات [1]. فإذا فاض النهر وامتلأ بالماء حتى أغرق الضفتين فالإله راضٍ فإذا غيض ماؤه فهو غاضب، ولا بد من تقديم القرابين حتى يرضى.. وقل مثل ذلك في بقية الظواهر- فكيف يكون مثل هذا الإنسان حراً؟! لا شك أنه عبد بكل معنى الكلمة، ومن هنا ذهب فرانسيس بيكون إلى أن «المعرفة قوة» فالعلم بأسباب الظواهر الطبيعية يجعلنا قادرين على السيطرة عليها فنستطيع أن نمنع تدمير الرياح لمنازلنا بالبناء المسلح ونتحكم في مياه الفيضان فنروي الزرع والضرع طول العام إذا أقمنا السدود في أوقات

---

(1) راجع كتابنا مدخل إلى الميتافيزيقا (مع ترجمة كاملة لكتاب ميتافيزيقا أرسطو) دار نهضة مصر بالقاهرة الطبعة الثالثة يناير 2009 ص217 علماً بأن بعض المجموعات قد تنقسم إلى أقسام فرعية مثل المجموعة السماوية التي بدأت بالقمر ثم الشمس ثم السماء ككل. ولا تزال أسماء الأيام في اللغات الأجنبية تعبّر عن هذه العبارة فيوم الأحد Sunday هو اليوم المخصص لعبادة الشمس ويوم الاثنين Monday لعبادة القمر والثلاثاء Tuesday يوم تيوز اله الحرب (المريخ) ص218.

الفيضان، وقمنا بتخزين المياه. وقل مثل ذلك في سقوط المطر وغيرها من الظواهر الطبيعية ومعنى ذلك أن الإنسان كلما تقدم في طريق الحضارة تخفف من سيطرة الطبيعة وسطوتها، فتاريخ الحضارة هو تاريخ الوعي بالحرية وإقامة الدولة بما لها من قوانين هي التي تحقق هذه الحرية بالفعل – على افتراض أن قوانين هذه الدولة من وضع المواطنين أنفسهم فهي تعبر عن تحديد ذاتي، وهذا التحديد الذاتي Self Determination – هو الحرية الحقيقية!.

خـاتمـــة

الطبيعة.... في مواجهة المجتمع

« الحضارة ككل هي التي تنتج هذا
المخلوق الذي نسميه بالأنثى»
سيمون دي بوفوار

Simone de Bedauvoir
The Second Sex, P.295

الواقع أن المواجهة بين الطبيعة والمجتمع قديمة قدم الفلسفة ذاتها، فقد بدأت عند اليونان وقسّمت الفكر اليوناني فريقين: أنصار النسبية والمجتمع (وهم السوفسطائية) وأنصار الطبيعة والمطلق (وهم عمالقة الفكر اليوناني في العصر الذهبي: سقراط، أفلاطون، وأرسطو)- وكان المعلم الأول من أكبر أنصار الطبيعة التي لا تفعل- في رأيه- شيئاً باطلاً ولا تكذب- وهي التي جعلت من المرأة مجرد «هيولي» في حين أنها جعلت الرجل هو الصورة، ومن ثم كان هو الأعلى بحكم الطبيعة لا بحكم العرف أو العادات والتقاليد وما إلى ذلك، وبما أنها جعلت الرجل الأعلى فقد جعلت من المرأة الموجود الأدنى فضلاً عن أن النساء ناقصات عقل» بطبيعتهن. وهو تصور خاطئ، لكنه ظل مسيطراً على الفكر البشري طوال العصر الوسيط وإنْ ارتدى ثوباً دينياً يؤكد الفكرة الأرسطية- وربما حتى العصر الحديث أيضاً- وقد ظهر واضحاً عند «روسو» الذي كان يؤله الطبيعة كغيره من الرومانسيين- ويرد كل خصائص الأنثى إلى الطبيعة، فهي التي شكلّتها في هذه الصورة التي يراها عليها، وليس في استطاعتنا أن نفعل شيئاً سوى أن نقوم بتنمية هذه الخصائص الطبيعية.

وربما كان في استطاعتنا أن نقول إن مسألة المواجهة هذه قد

حسمت تماماً في القرن العشرين مع تطور العلم أولاً لدرجة أننا أصبحنا نجد من علماء النفس مَنْ ينفي وجود «الغرائز» الفطرية ولا يقول إلا بثلاثة دوافع فطرية (لأنها بيولوجية) هي: الأكل، والشرب، والجنس أما بقية دوافع السلوك البشري فهي كلها مكتسبة، ومن ثم ففي استطاعتنا أن نقول باطمئنان إن جميع خصائص الأنثى التي تحدث عنها «روسو» وردها إلى الطبيعة كالشعور بالدونية أمام الرجل، وكذلك الخجل والاحتشام، أو الرقة والعفة، والدهاء والمناورة، والسلبية، والخضوع والاعتماد على الآخر، والحساسية، والطاعة ، والميل إلى التجمل والتزين..الخ- هي كلها خصائص مكتسبة- فرضتها عليها الجماعة أو البيئة التي تعيش فيها.

ولقد جاء ظهور الفلسفة الوجودية- من ناحية أخرى- دعماً لهذا التصور الجديد، فقد ذهبت إلى أن وجود الإنسان (ذكراً أو أنثى) يسبق ماهيته، بمعنى أن الموجود البشري يوجد أولاً ثم يقوم بتشكيل ماهيته بعد ذلك معتمداً على البيئة من حوله.

ومن هنا فقد رفعت الوجودية شعارها الشهير: أيها الإنسان: كن ذاتك»!»صر ذاتك!» – كن إنساناً ومعنى ذلك أنها ترفض القول بأن الإنسان يولد إنساناً- وتذهب إلى أنه يصير أو يصبح كذلك فحسب! أو بمصطلحاتها الخاصة لا يكون وجود الإنسان مطابقاً لماهيته كإنسان (ذكراً أو أنثى) منذ اللحظة الأولى لهذا الوجود بل هو يوجد أولاً ثم تتشكل ماهيته بعد ذلك، فهذه الماهية هي هدف أو غاية أو مشروع Project يسعى المرء في المستقبل إلى أن يقوم بتحقيقه[1] وقد ينجح

---

(1) لاحظ أن كلمة المشروع في اللغة الأجنبية نفسها تعني ما يُطرح إلى الأمام

وقد يفشل أعني أنه قد يظل في المرحلة الحيوانية التي بدأ منها- طيلة حياته أعني أنه قد لا يصبح إنساناً أبداً مهما بدا في صورة الإنسان، فالمسألة ليست في شكله: الجسم والوجه والقدمين..الخ وإنما في «ماهيته»، أو شخصيته الفردية التي تميزه عن غيره من الموجودات الأخرى- لكن ليس ثمة ضرورة في أن يتحول الوعي إلى وعي ذاتي بحيث يتحول هذا الحيوان إلى إنسان!.

وإذا كانت هذه هي الفكرة الوجودية بصفة عامة- فهي تهمنا بصفة خاصة في موضوع المرأة التي يرى «روسو» وغيره أن الطبيعة هي التي أعدتها على هذا النحو الذي يجعلها تابعة وخاضعة للرجل: ليس لها شخصية مستقلة، ولا تستطيع أن تعتمد على نفسها، ولا تصلح للمشاركة في الحياة السياسية..! هكذا حكمت عليها الطبيعة وليس من حقها الشكوى أو التذمر!.

تقول سيمون دي بوفوار Simone se Beauvoir (1908 – 1986) في كتابها الجنس الآخر أو الجنس الثاني:

«المرأة لا تولد امرأة، بل هي بالأحرى تصير امرأة أو تصبح كذلك وليس في استطاعة مجموعة من العوامل البيولوجية أو السيكولوجية أو حتى الاقتصادية أن تحدد الشخصية التي سوف تتخذها الأنثى البشرية في المجتمع لكن مجموعة الظروف الحضارية أو قل الحضارة ككل هي

=

ويتحقق في المستقبل، فهي Project مكونة من مقطعين Pro بمعنى الإمام ثم Ject وهي مأخوذة من الفعل Jetter الفرنسي بمعنى يُطرح أو يلقى فهي حرفياً ما يُطرح إلى الإمام.

التي تنتج هذا المخلوق.. الذي يوصف بأنه أنثى...»[1] ويقول ميرلو بونتي Merleau Ponty (1908 -1961).

ليس الرجل نوعاً طبيعياً Natural وإنما هو فكرة تاريخية وليست المرأة واقعاً مكتملاً، وإنما هي بالأحرى تصير واقعاً وهي في صيرورتها ينبغي أن نقارنها بالرجل، أعني ينبغي تحديد إمكاناتها وما يثير كثيراً من اللغط في هذا الموضوع هو الميل إلى ردها إلى ما كانت عليه من قبل أو إلى ما هي عليه الآن...

لكن إذا كانت المرأة نتاجاً لمجتمعها فقد يوجد في هذا المجتمع نفسه عادات وتقاليد تحط من شأنها، وقد يوجد أيضاً مفكرون وفلاسفة يتبنون أفكار هذه العادات والتقاليد، ولقد حدث ذلك في تاريخ الفلسفة ابتداء من الفلسفة اليونانية فقد تبنى أرسطو نظرة اليونان إلى المرأة ورأى أنها موجود ناقص» الأنثى أنثى بفضل نقص خصائص معينة فيها وينبغي علينا أن ننظر إلى طبيعة الانثى على أنها تحتوى على نقائص طبيعية» ثم بدأ المعلم الأول يدلل على وجود هذا النقص من دراسته للعلوم المختلفة ولاسيما البيولوجيا- أما القديس توما الأكويني[2]: فقد أعلن من جانبه: أن المرأة رجل ناقص، وهي موجود عارض Incidental...» إشارة إلى ما يرمز له سفر التكوين «عندما يصور حواء على أنها خُلقت مما أسماه بوسويه[3] عظيم زائد عند آدم»[1].

---

(1) Simane de Beauvoir: The Second Sex» P. 295.

(2) راجع في ذلك كله سيمون دي بوفوار الجنس الآخر أو الثاني The Second Sex, p.14-15.

(3) جاك بيتي بوسويه J.B,Bossuet (1627-174) أسقف ومؤرخ ومفكر

وهكـذا نجـد أن البشـرية – فيمـا تقـول سـيمون دي بوفـوار هـي الذكورة، ومن ثم فإن الرجل يُعّرف المرأة لا في ذاتها بل بالنسبة إليه فلا ينظر إليها أبداً على أنها موجود مستقل ومن هنا قال ميشيليه[2] المرأة موجود نسبي[3] ويقول جوليان بندا Julien Benda[4].

«لجسد الرجل معنى في ذاته في استقلال تام عن جسد المرأة، في حين أن جسـد المـرأة يبـدو أنـه فـي ذاتـه يفتقـر إلـى المغـزى.. فالرجـل يستطيع أن يفكر في نفسه بدون المرأة، لكن المرأة لا تستطيع أن تفكر في نفسها بدون الرجل [5] وهي ببساطة ما يحكم به ويقرره الرجل، ومن هنا فقد سميت بالجنس الأخر The Sex ما يعنـي أنهـا تبـدو جوهريـة

=

فرنسـي هـاجم البروتسـتانيتة بعنـف وكـان خطيبـاً مفوهـاً اعتبـرت خطبـه نموذجاً عالياً من نماذج البلاغة الفرنسية.

(1) ويقال أحياناً من ضلع أعوج من ضلوع آدم- وربما كان هذا الضلع هو العظام الزائدة التي أشار إليها بوسويه!!.

(2) جول ميشيله Jules Michelet (1798 -1874) مؤرخ فرنسي عُين بعد ثـورة عـام 1830 رئيسـاً للقسـم التـاريخي مـن دائـرة المخطوطـات (الأرشيف) الوطنية، فأفاد من ذلك فائدة كبرى في إعداد كتابه «تاريخ فرنسا» في سبعة عشر مجلداً.

(3) S.De Beauvoir: The Second Sex, P.16.

(4) جوليان بندا Julien Benda (1867 – 1956) فيلسوف فرنسي قاد حركة في النقد الأدبى الفرنسي ضد الرومانسية كما تشمل مؤلفاتة هجمات متعـددة علـى فلسـفة برجسـون» كتـب «حـول نجـاح البرجسـونية» عـام 1914- كما كتب روايات ومقالات فلسفية متعددة.

(5) Sinon de Beauvoir: The Second Sex P.16.

بالنسبة للرجل كموجود جنسي فهي بالنسبة له جنس، وجنس مطلق لا أكثر ولا أقل. فهي تعرف، وتختلف أو تتميز بالإشارة إلى الرجل لكنه لا يعرف ولا يتميز بالإشارة إليها، فهي العرضي والحادث وغير الجوهري في مقابل الجوهري: أنه الذات، أنه المطلق، أما هي فهي الآخر The Other [1].

ومن أعجب العجب أن نجد طابوراً طويلاً من الفلاسفة من سقراط وأفلاطون وأرسطو قديماً إلى جون لوك، وأدم سميث، وكانط، وهيجل، وروسو حديثاً بين مجموعة كبيرة من الفلاسفة الذين يختلفون فيما بينهم أشد ما يكون الاختلاف وتتناقض فلسفاتهم، وتتضارب آراؤهم، لكنهم عندما يعالجون موضوع المرأة نراهم يشكلون جبهة قوية صامدة بالغة الغرابة!. والافتراض الكامن خلف معارضاتهم لها، والذي يعتبر اللحن المميز الذي يُعزف بأساليب متنوعة: هو أن الطبيعة البيولوجية للمرأة تجعلها موجودا ناقصاً، وتبرر عدم اشتراكها في الحياة السياسية، فضلاً عن الاعتقاد بأن الطبيعة السيكولوجية للمرأة تجعلها رقيقة انفعالية لا عقلانية. ومن هنا جاء الإصرار على حصر المرأة في المنزل بجوار المدفئة! والتأكيد على أن المرأة يناسبها تربية المواطنين، لكنها لا تصلح هي نفسها أن تكون مواطنة جميع هذه الآراء اعتنقها الفلاسفة – صراحة أو ضمناً ومن العجب أنها تمثل مكانة في فلسفاتهم السياسية والأخلاقية[2].

وتقول سوزان مندس Susan Mendus أن الحجج التي تحصر

---

(1) Ibid.

(2) راجع Ellen Kennedy and Susan Mendus في مقدمتها لكتاب:
Women in Western Political Philosophy P. 3-4

المرأة في الأسرة أو تجعل مكانها المنزل عند معظم الفلاسفة تضرب بجذورها في تصورهم لطبيعة المرأة. فقد تصوروا المرأة على أنها عبدة لعواطفها وانفعالاتها الطاغية، قادرة فقط على الاستجابات الانفعالية العاطفية للمواقف التي تجد نفسها فيها، وهي تستهلكها تماماً مواقفها غير النظرية للحب والكراهية ولقد ذهب شليجل إلى Schlegel إلى حد تأكيد: «أن الحب هو رسالة المرأة..» وهي عاجزة عن أن تجريه إلا كاهتمام خاص» وسوف يكرر نيتشه ما قاله «روسو» وغيره من «أن النساء خادمات بالطبع فالمرأة تسعى إلى الخدمة وتجد سعادتها هناك»[1].

ومن العجب أيضاً أن نجد روسو في النصف الثاني من القرن الثامن عشر– يشيد بالمرأة اليونانية ويجعلها المرأة المثالية في نظره يقول: «لقد كانت المرأة اليونانية إذا ما تزوجت اختفت من الحياة العامة مكتفية بالجدران الأربعة التي تعيش وراءها في المنزل، مكرسة نفسها لخدمة بيتها وأسرتها، وهذا هو طراز الحياة الذي تأمر به الطبيعة ويقرّه العقل ولهذا فقد كانت النساء ينجبن رجالا أقوياء وشجعاناً أشداء وعلى الرغم مما كانت تتمتع به بعض الجزر من سمعة سيئة، فمن الثابت أنه لم يوجد في العالم كله نساء (ولا حتى بين الرومان) جمعن بين السحر والفَتنة والحكمة والفضيلة والجمال على نحو ما فعلت نساء اليونان القديمة[2].

---

(1) Susan Mendus: introduction to Women in western in Political Philosophy P.11.

(2) J.J. Rousseu Emile, P.330.

=

وهناك مؤشرات كثيرة في مؤلفات «روسو» على أنه كان لديه سبب إضافي في رفضه تطبيق مبدأ المساواة على النساء وكان هذا السبب هو خوفه الشديد من أن النساء لو لم يكن خاضعات للرجال بطرق هامة معينة فسوف يسيطرن عليهم تماماً؛ فهو يعتقد أنه طالما أن المرأة لديها القدرة لإثارة رغبات الرجل الجنسية إلى حد أن هذه الرغبات لا تشبع تماماً أبداً، وما دامت الطبيعة جعلتها قوية، بما فيه الكفاية لمقاومة خطواته نحوها عندما يحلو لها أن تفعل ذلك، فإنه ينتج من ذلك أنه، فيما يتعلق بحاجات الرجل الجنسية: فإن الرجل «بقانون الطبيعة الذي لا يتغير» يعتمد على الإرادة الطبيعة للمرأة كما يقول روسو في «إميل» – وكما يقول في خطابه إلى دالمبير «الحب هو مملكة المرأة، فالنساء هن اللائي يعطن بالضرورة قانونه» (ص149) – لأنه طبقا لنظام الطبيعة فإن المقاومة تنتهي إليهن وليس في استطاعة الرجل هزيمة هذه المقاومة إلا على حساب حريتهم، وهكذا يصبح من الواضح أن المرأة كما رآها «روسو» تحت أمرة مناطق حساسة في حياة الرجل[1].

هناك تفسير آخر يرد ما قاله «روسو» إلى العرف والعادات والتقاليد..الخ إلى حد أنه يجعله يشبه غيره من الرجال في العصور السابقة في موقفه، في تغاضيه عن مطالب المرأة في المشاركة في الحياة السياسية لقد كان من الصعب على أي رجل في القرن الثامن عشر أن

=

وقارن أيضاً الترجمة العربية ص674.

(1) سوزان موللر أوكين: «النساء في الفكر السياسي الغربي» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام – دار التنوير ببيروت عام 2009. ص171.

يأخذ مأخذ الجد فكرة أن هناك مساواة سياسية حقيقية بين الرجال والنساء تماماً مثلما كان من الصعب على الثوار الأمريكيين أن يأخذوا مأخذ الجد فكرة أن الحقوق الإنسانية التي يطالبون بها والتي اعتبرها «جيفرسون» حقيقة واضحة بذاتها يمكن أن تنطبق على عبيدهم من الزنوج[1].

وإذا كان «روسو» قد أعاد بقوة تأكيد وجهة النظر التقليدية عن النساء فمن المؤكد أن ذلك لم يكن لنقص في الخيال والطاقة الذهنية ليتدبر البدائل فقد كان راديكالياً تماماً بالنسبة لعادات وتقاليد مستقرة وراسخة في المجتمع: لكن لماذا لم يكن كذلك بالنسبة للمرأة؟! بل أكثر من ذلك فإنه لم يكن يفتقر إلى نماذج للنساء المتحررة فبغض النظر عن تريز Therese القروية الساذجة كانت معظم النساء في حياته نشطات وشخصيات قوية مسيطرة وقادرة تماماً على انتهاز أية فرصة للمشاركة في الحياة العامة. ومنهن مدام دي فارنس Mme de Warens ومدام دوبان Mme Dupin، ومدام دويتون Mme d'Houdetot- وفي الفترة التي كان يعمل فيها عند أسرة «دوبان» كان يتعاون مع مدام دوبان في كتابة مقالات نسائية ومن المشكوك فيه أنها كانت توافق على كل ما يكتب.

أضف إلى هذه الخبرات إعجابه بأفلاطون الذي اقترح أن تكون النساء من بين الملوك الفلاسفة ومن الواضح أنه لا بد أن تكون لديه أسباب قوية أكثر من مجرد العرف والعادات والتقاليد جعلته يصمم على إبعاد النساء تماماً عن الحياة العامة ولاشك أن بعض هذه الأسباب سيئة

---

(1) Margaret Conovan: Ibid, P.82.

السمعة ومشينة من حياته الشخصية ويبدو من المحتمل جداً أن روسو كان يخشى النساء بعمق من ناحية بسبب أنه كان يشعر بالعار ربما من دوافع الاستسلام الموجودة عنده نحوهن، ولقد رأى أن ذلك لا يخففه الحشمة والأدب ليس بالضبط على أنه الدور المناسب لضعفهن بل أيضاً كعلاج مناسب لقوتهن. ولكي نكون منصفين فإن رغبته في إبقاء النساء في المنزل كانت أيضاً رد فعل لنوع من الحياة العامة موجود بالفعل في فرنسا أكثر منه ضد المواطنة النسائية. فالنساء المتحررات اللاتى التقى بهن لم يكن يتحركن في عالم عام: عالم السياسة الحرة طالما أنه لم يكن هناك مثل هذا العالم. وبدلاً من ذلك فهن عندما يغادرن بيوتهن للدخول في الحياة العامة فإن ملاذهن يكون هو المجتمع الراقي مجتمع الصالونات. ومن المفهوم تماماً أن روسو كان يتمرد على هذه الحياة العامة المليئة بالنفاق والمؤامرات المهووسة بالموضة، والاستعراض الشخصي، والعلاقات الغرامية ولهذا نراه يرفع من شأن الحياء والاحتشام. وبالمثل عندما رأى في اقتراح دالمبير لبناء مسرح في جينيف تهديداً للفضيلة العامة للمدنية- كان خوفه من ناحية أن هذا المسرح سوف يجذب النساء خارج بيوتهن إلى مجتمعات أخرى على غرار المجتمع الباريسي، وهذه الحياة العامة التي سوف تظهر في جينيف سوف تمتص وتتفوق على الحياة التي كانت أصيلة في المدينة والتي كانت حصرياً للرجال وحدهم دون النساء[1].

---

(1) Margaret Conovan: «Rousseau's Two concepts of Citizenship», in Women in western political philosophy edited by Ellen Kennedy& Sysan Mendys, Wheat sheef Books 1987 Great Britain.

وسواء أكان هذا السبب أو ذاك وراء آراء «روسو» المجحفة في حق المرأة فلا شك أنه كان ابن عصره، وسوف نرى أن أعظم فلاسفة العصر– كانط كان مجحفاً في حقها أيضاً، وقل مثل ذلك، يشأ عظيم آخر من عظماء العصر الحديث: هيجل– إذ لم يظهر بريق أمل إلا على يد «جون ستوارت مل» في القرن التاسع عشر الذي صاحبته الثورة الصناعية الحديثة. وهذا ما سوف نتعقبه بإذن الله في الأعداد القادمة من هذه السلسلة.

«مـراجع البحـث»

أولاً: المراجع العربية:

(أ) مؤلفات روسو المترجمة إلى العربية.

1- **جـان جـاك روسـو «إميـل أو التربيـة»** ترجمـة عـادل زعيتـر – دار المعارف بمصر عام 1956.

2- **جان جاك روسو: «أصل التفاوت بين الناس»** ترجمة عادل زعيتر – دار المعارف بمصر عام 1954.

3- **جـان جـاك روسـو: «العقـد الاجتمـاعي»** ترجمـة عـادل زعيتـر – دار المعارف بمصر عام 1952.

4- **جـان جـاك روسـو: «العقـد الاجتمـاعي»** ترجمـة ذوقـان قرقـوط- دار القلم- بيروت لبنان (بدون تاريخ).

5- **اعترافـات جـان جـاك روسـو**: ترجمـة محمـد بـدر الـدين خليـل- دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- دمشق عام 1985 في ثلاثة مجلدات.

6- **»العقد الاجتماعي» – لوك- هيوم – روسو**: ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة توفيق اسكندر – دار سعد مصر للطباعة والنشر (مكتبة الألف كتاب بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالى).

ب – مراجع عن روسو:

1- **د. محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته وكتبه»** الطبعة الثانية عام 1965 مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

2- **ديفيد روبنسون وأوسكارزاريت: «روسو»** ترجمة إمام عبد الفتاح إمام سلسلة أقدّم لك- المشروع القومي للترجمة عدد رقم 696- المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2005.

3- **د. سامية عبد الرحمن «جان جاك روسو: الفيلسوف الثائر»** دار الثقافة بالفجالة القاهرة عام 2004 -2005.

4- **سوزان موللر أوكين «النساء في الفكر السياسي الغربي»** ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام – العدد الثامن من سلسلة المرأة في الفلسفة دار التنوير بيروت عام 2009.

5- **جورج سباين: «تطور الفكر السياسي»** الكتاب الرابع- ترجمة علي إبراهيم السيد- مراجعة وتقديم الدكتور راشد البراوي- دار المعارف بمصر إبريل عام 1971.

6- **د. مصطفى الخشاب «تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية»** لجنة البيان العربي الطبعة الأولى عام 1953.

7- **جان جاك شوفاليه: تاريخ الفكر السياسي»** ترجمة ديسمبر عزب- المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى عام 1985.

8- **برتراندرسل: تاريخ الفلسفة الغربية** – الجزء الثالث ترجمة د. محمد فتحى الشنيطي الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1977.

9- **وليم كيلي رايت: «تاريخ الفلسفة الحديثة»** ترجمة د. محمود سيد أحمد تقديم ومراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام الطبعة الثانية المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة رقم257.

ج – مراجع عامة:

1- **الدكتور مهدي محفوظ: «اتجاهات الفكر السياسي في العصر**

الحديث» المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1990.

2- د. نوال السعداوي «مذكرات طبيبة»- مكتبة مدبولي بالقاهرة – الطبعة الثانية عام 2006.

3- جورج طرابيشي: «أنثى ضد الأنثى: دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء التحليل النفسي» دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى ديسمبر 1984.

4- ليوشتراوس جوزيف كروبسي: تاريخ الفلسفة السياسية» الجزء الأول من ثيوكيديدس حتى اسبينوزا ترجمة: د. محمود سيد أحمد مراجعة وتقديم د.إمام عبد الفتاح إمام- المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة العدد 809- القاهرة عام 2005.

5- ليوشتراوس، جوزيف كروبسي: «تاريخ الفلسفة السياسية الجزء الثاني من جون لوك إلى هيدجر» ترجمة د. محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم د.إمام عبد الفتاح إمام – المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة العدد 810 – القاهرة 2005.

6- د. إبراهيم دسوقي أباظة والدكتور عبد العزيز الغنام «تاريخ الفكر السياسي» الناشر دار النجاح – بيروت عام 1973.

7- جان جاك شفاليه: «المؤلفات السياسية الكبرى: من ماكيافلى إلى أيامنا». ترجمة ألياس مرقص- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى 1980.

8- جان توشار «تاريخ الفكر السياسي» ترجمة الدكتور على مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت الطبعة الثانية 1983.

9- مونيك بتر «المرأة عبر التاريخ» ترجمة هنريت عبود دار الطليعة بيروت.

10- عبد الهادي عباس «المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها» 3 أجزاء – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق عام 1987.

11- ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد الأول ترجمة د. زكي نجيب محمود، والمجلد 39 ترجمة.

12- د. أميرة حلمي مطر: «الفلسفة السياسية: من أفلاطون إلى ماركس» دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة عام 1986.

13- المرأة والحرية: يوسف ميخائيل- دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة عام 1977.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1- **J. J. Rousseau:** «The Reveries of the Solitary walker» Translate by E. Butter worth Hackett Publishing Company Cambridge, 1967.

2- **J. J. Rousseau:** «Julie, Ou La Nouvelle HeLoise» by R. J. Howells: Critical Guides to French Texts, Grant and Cutler, LTD 1986.

3- **J. J. Rousseau:** «Emile» Translated by Barbara Foxley, Every man's Library, Dunton New York 1974.

4- **J. J. Rousseau:** Political Writings Transtaled and Eited by F. M. Watrins Nason Philosophical Texts, 1953.

5- **J. J. Rousseau:** « The Social Contract» Eng. Trans. By Maurice Cranston, Penguin Books.

6- **J. J. Rousseau:** A Discourse on Inequality, Eng. Trans. Maurice Cranston, Penguin, Books, 1984.

7- **J. J. Rousseau:** « The Confessions» Eng. Trans by J. M. Cohen, Pongius Books, 1987.

8- **Ellen Kennedy and Susan Mendus «Women in Western Political Philosophy»** Wheat sheaf Books Great Britain, 1987.

9- **«The Sexism of Social and Political Theory:** Women and Reproduction From Plato to Nietzsche» edited by Lorenne M. G. Clark and Lynda Lange. University of Toronto Press, Toronto Buffalo London, 1979.

10- **William T. Bluhm:** «Theories of the Political System: Classics Political thought and Modern Political Analysis»

Second Edition Printice Hall, Inc. Engle wood Cliffs. N. J. 1971.

11- **Maurice Cranston:** «Western Political Philosophers» Background Books Published by The Bodley Heed, London, 1972.

12- **Discovering Reality:** Feminist Perspective on Epistemology, Metaphysics, Methodology, and Philosophy of Science» edited by Sandra Harding and Merillb. Hintikka D. Redel Publishing Company, London, England, 1983.

13- »**Public Man, Private Woman:** Women in Social and Political Thought by Jean Bethke Elshtain, Martin Robertzon Oxford, 1981.

14- **Robert Wokler:** Rousseau Oxford University Press, 1995.

15- The Family in Political Thought ed. by Jean Betke Elshta The Harvester Press 1982.

16- **De Beauvoir (Simone):** «The Second Sex» Eng. Trans. By H. M. Parshley, Denguin Books 1987,

17- **De Beauvoir (Simone) «Old Age»** Eng. Trans. By Patrick O'BRIAN Penguin Books, 1972.

فهرس المحتويات

مقدمة..5
الفصل الأول: حياة متناقضة بين أحضان الأنثى......................17
أولاً: سنوات الطفولة:...19
ثانياً: حياة التشرد:...20
ثالثاً: الطريق إلى باريس:...22
رابعاً: تريز لافاسير:..26
خامساً: بداية السُلّم:..29
سادساً: أصل التفاوت بين البشر: 34
سابعاً: صومعة الناسك:..37
ثامناً: خطاب إلى دالمبير: 47
تاسعاً: هلويز الجديدة:..52
عاشراً: إميل أو التربية:...57
حادي عشر: تربية النساء:..63
اثني عشر: روسو وهيوم: 69
ثالث عشر: خاتمة العذاب: 74
الفصل الثاني: تأليه الطبيعة 77
أولاً: تمهيد: 79
ثانياً: روسو يتابع التراث الأرسطي⁰. 82
ثالثاً: تصوران للمواطن: 88
رابعاً: الجنس الآخر: 92
الفصل الثالث: خصائص الأنثى 107
أولاً: تمهيد: 109

ثانياً: دونية المرأة:.......................................110
ثالثاً: الخجل والاحتشام: 113
رابعاً: الرقة والعفة: 116
خامساً: الدهاء والمناورة:...123
سادساً: خاتمة...126
الفصل الرابع: تربية المرأة...131
أولاً: تمهيد: 133
ثانياً: كتاب «روسو»: 135
ثالثاً: تربية إميل Emile...137
رابعاً: تربية صوفي.. Sophie:...141
خامساً: الرسم والتطريز:...148
سادساً: الأمومة: 149
سابعاً: التربية الدينية: 154
الفصل الخامس: مفارقات روسو...163
أولاً: تمهيد: 165
ثانياً: مفارقات الحياة: 166
ثالثاً: مفارقات التفكير:...167
رابعاً: مفارقات الفن والفنان: 168
خامساً: مفارقات عن التربية:...169
سادساً: مفارقات سياسية: 176
سابعاً: مفارقات متفرقات:...179
خاتمة: الطبيعة... في مواجهة المجتمع...185
«مراجع البحث» 199
أولاً: المراجع العربية: 199
ثانياً: المراجع الأجنبية: 203
فهرس المحتويات...205

روسو والمرأة

إذا تصورنا إقامة معرض لأدوات تعذيب للمرأة وقتلها، فأن "روسو" سوف يحتل مكان الصدارة فى مثل هذا المعرض المرعب. ذلك لأنه إذا كان معظم المفكرين السياسيين قد سلموا بخضوع النساء، فإن بطرياركية روسو، بصفة خاصة، كانت صارخة شديدة الوضوح، فضلاً عن أنها تتعارض تعارضاً شديداً مع آرائه الثورية عن العدالة، والحرية، والمساواة الخاصة بالوضع الصحيح للجنس البشرى (إذا كان من الرجال) - فهو يشجب تبعية شخص لشخص آخر، فى حين أنه يعتبر هذه التبعية جزء لا يتجزأ من طبيعة المرأة وجوهرها - إذ لابد أن تكون المرأة تابعة للرجل. ويطالب بالاستقلال السياسي والأخلاقي بين البشر (لكنه يعني أن يكون هذا الاستقلال للرجل فحسب دون المرأة لأنه لا يسمح لها أصلاً بالاشتراك فى العمل السياسي) لكنه يُعطي لهذا المفاهيم الثورية، والأفكار الراديكالية، والتصورات السياسية والاجتماعية الجديدة إجازة إذا ما تحدّث عن النساء. وهكذا كان تمجيده للمجالات العامة للمواطنة مؤلماً غاية الألم عندما يستبعد منها النساء.

ومن هنا فإن علينا أن لا ننخدع بكلمات "الفيلسوف الثائر" عن العدالة والحرية والإخاء والمساواة وغيرها من المفاهيم الجميلة التى يستخدمها فى مجال الحديث عن أقرانه من الرجال، وعلينا أن نتذكر باستمرار أنه يقول: "**إذا اشتكت المرأة من اللامساواة مع الرجل فهى مخطئة!**". هكذا بصراحة ووضوح فالحديث عن المساواة لا يعنى أنه يمتد ليشمل" المرأة والرجل" وإنما هو محصور فى نطاق الرجال فحسب..!.

ISBN 978-6589-09-989-8
9 786589 099895

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١٤٧٥٩٠٥
Email: dar_altanweer@hotmail.com
dar_altanweer@yahoo.com

توزيع دار الفارابي